يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النّهر
وشطر خُراسان وشطر طَبَرِستَان

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطّاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع – المجلد السابع والثلاثون

ربيع الاول ١٤٠٧ هـ – كانون الاول ١٩٨٦ م

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــداد

رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النّهر(١)
وشطر خُراسان(٢) وشطر طَبَرِسْتَان(٣)

تأليف

اللواء الرّكن

محمود شيت خطّاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ــ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــداد

رجب ١٤٠٧ هـ ــ آذار ١٩٨٧ م

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النّهر(١) وشطر خُراسان(٢) وشطر طَبَرِسْتَان(٣)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع العلمي)

نسبه وأيامه الأولى

هو أبو خالد يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِي ، وهو من أزْد العَتِيك أزْد (دَبا) (٤) .

أبوه : المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة بن سَرَّاق (٥) بن صُبَيح (٦) بن كِنْدِيّ

---

(١) ماوراء النهر : ماوراء نهر جيحون ، فما كان في شرقيّه يقال له : ماوراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خُراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد واخبار البلاد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ ـ ٥١٥) .

(٢) خُراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجتان الى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى اقصى تخوم ايران ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٤٠٧/٣) .

(٣) طبرستان : ولاية كبيرة من اكبر مدنها (آمل) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧/٦) والمسالك والممالك للاصطخري (١٢٤) .

(٤) دبا : اسم موضع بين عُمان والبحرين ، انظر التفاصيل في وفيات الأعيان (٤٣٩/٤) والمعارف (٣٩٩) ، وهي مدينة بعُمان قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها ، انظر معجم البلدان (٣٠/٤) .

(٥) ويقال : ابن سارق ، انظر الاستيعاب (١٦٩٢/٤) والاصابة (١٠٥/٧) .

(٦) في وفيات الأعيان (٤٣٢/٤) : ابن صبح ، وكذلك في جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .

ابن عمرو بن وائِل بن الحارث بن العَتيك بن الأَسد بن عِمْران بن عمرو مُزَيْقِياء (٨) بن عامِر بن ماء السماء (٩) بن حارثة بن امرئ القيس بن ثَعْلبة بن مازِن بن الأَزْد الأَزْديّ العَتَكيّ (١٠) .

وأمّه : رَحِمَة (١١) الأَزْدِيَّة ، وخاله : جُدَيْع بن سعيد بن قَبيْصَة بن سَرّاق الأَزْدِيّ ؛ (١٢) فأمّه رَحِمَة بنت سعيد بن قَبيْصَة ابن سَرّاق الأَزْدِيّة ، فيكون يزيد أَزْدِيّاً من الأب والأم ، وأمّه بنت عمّ أبيه .

ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرية (١٣) (٦٧٢ م) ، فشبّ وترعرع في كنف أبيه القائد الذي تولّى القيادة في وقت مبكّر على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين الهجرية (١٤) (٦٥١ م) واشتهر قائداً وواليّاً حتى توفاه الله سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وهو على خُراسان وقد كان المُهَلَّب من أبرز قادة الفتح ، برز في الفتوح ، وبرز في إخماد

(٧) في الاصابة (١٠٥/٧) ووفيات الأعيان (٤٣٢/٤) ، ابن الأزد .
(٨) مزيقياء : لقب عمرو المذكور ، وكان من ملوك اليمن ، انظر وفيات الاعيان (٤٣/٤) .
(٩) في وفيات الأعيان (٤٣٩/٤) : عامر ماء السماء ، لا عامر بن ماء السماء ، كما ورد في أعلاه ، وقد لقّب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه ، فَشُبِّه بالغيث .
(١٠) أسد الغابة (٢٣١/٥) ، وانظر الاصابة (٣٠٣/٣) و (١٠٥/٧) والاستيعاب (١٦٩٢/٤) وطبقات ابن سعد (١٠١/٧) و (١٢٩/٧) ووفيات الأعيان (٤٣٢/٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢) والتنبيه والاشراف (٣٢٠) ، واسم أبي صفرة : ظالم ، انظر جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .
(١١) الطبري (٣٥٣/٦) .
(١٢) الطبري (١٩٦/٦) .
(١٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢٠٦/١) ووفيات الأعيان (٣٤٩/٥) .
(١٤) ابن الأثير (٤٤٠/٤) .

الفتن الداخلية ، فكان يزيد مع أبيه في الفتح وفي إخماد الفتن الداخلية منذ شبّ عن الطّوْق واستطاع حمل السّلاح ، فاكتسب خبرة عملية في القيادة والادارة في محيط والده المتميّز بالكفاية والشجاعة والحنكة ، مما كان له أثر كبير في حياته العمليّة قائداً وإدارياً . .

وكان يزيد السّاعد الأيمن لأبيه المهلّب قائداً وإداريا ، وقد سأل الحجاج ابن يوسف الثّقفيّ عن أولاد المهلّب ، فقيل له : « . . . وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً (٤) » فكتب الحجّاج إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولي (كَرْمان)(١٥) مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها ، فاستعمل المهلّب على (كَرْمان) يزيد ابنه (١٦) ، وأقرّ الحجّاج تولية يزيد ، مما يدلّ على ثقة المهلّب بابنه يزيد وثقة الحجّاج به على الرغم من أنّ تولية يزيد (كَرمان) كانت سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٤٦ م)، ويومها كان عمر يزيد لا يزيد على خمس وعشرين سنة ، أي أنّه كان في ريعان الشباب .

ومن المؤكد أنّ أعباء المهلّب القتالية والادارية وانغماس ولده يزيد في معاونة والده المهلّب في تحمل بعض أعبائه الثقيلة ، حرمت يزيد من التفرغ لاستيعاب العلوم النظرية السّائدة في حينه : علوم القرآن والحديث واللّغة والأدب والتاريخ والفقه ، ولكنه لم يحرم نهائياً من تعلّم تلك العلوم على أبرز الأساتذة والشيوخ المعروفين في حينه بالبصرة والكوفة ، وبهذا استكمل يزيد شخصيته في تلقي العلوم النظرية والعملية ، وأعدّ نفسه إعداداً كاملاً لتحمل ما تنتظره من اعباء جسام .

وفي طريق عودة المهلّب من بلاد ما وراء النهر إلى (مَرْو) مقرّه في

(١٥) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ، ذات بلاد وقرى واسعة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) ، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها في المسالك والممالك للاصطخري (٩٧ — ١٠٠) .

(١٦) ابن الأثير (٤٤١/٤) .

خرُاسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، توفيّ المُغيرْة بن المهلّب ، وكان أبوه المهلّب قد استخلفه على عمله في (خرُاسان) ، فأتى نعيهُ يزيدَ ابن المهلّب وأهل العسكر ، فلم يُخبروا المهلّب ، ولكن يزيد أمر النساء فصرخن ، فقال المهلّب : « ما هذا » ، فقيل : مات المغيرة ! فاسترجع المهلّب وجزع حتى ظهر جزعه . ودعا يزيد ووجّهه إلى (مرو) ، وأوصاه بما يعمل ، وإنّ دموعه لتنحدر على لحيته .

وسار يزيد في ستين فارساً ، ويقال : في سبعين ، فلقيهم خمسمائة من الترك في مفازة (بُسْت) (١٧) ، وطلبوا إعطاءهم شيئاً من المال وإلاّ قاتلوهم ، فأبى يزيد أن يعطيهم شيئاً ، لأنه ابتزاز والخائف يسمح بابتزازه . ولكن مُجَّاعة بن عبد الرحمن العَتَكِي أعطاهم ثوباً وقوساً وأشياء تافهة أخرى ، فانصرف الأتراك على مضض ، وغدروا وعادوا إلى مفرزة يزيد . ونشب القتال بين الجانبين واشتدّ . وكان مع يزيد رجل من الخوارج أخذه أسيراً في إحدى المعارك التي دارت بين الخوارج والمهلّب وشهدها يزيد ، فقال له الخارجي : « استَبْقني » فاستبقاه . وحمل الخارجيّ على الترك حتى خالطهم وقتل رجلا منهم ثم رجع إلى يزيد ، كما قتل يزيد عظيماً من عظمائهم ، ورُمي يزيد بساقه . واشتدّت شوكة الترك ، فصبر لهم يزيد حتى حاجزوهم ، وأصرّ الترك على أخذ شيء من مفرزة يزيد أو يموت أحد الجانبين المتقاتِلَينْ . فلم يعطهم يزيد شيئاً .

وقال مُجَّاعة : « أُذَكّرك الله ! قد هلك المُغيرَة ، فأنشدك الله أن تهلك ، فتجمع على المهلّب المصيبة » . فقال يزيد : « إنّ المغيرة لم يَعْدُ أجلَه ، ولستُ أعدو أجلي » ، ثم رمى إليهم مُجَّاعة بعمامة صفراء ،

(١٧) بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، وهي من اعمال كابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٧٠ ـ ١٧٨) .

فاخذوها ثم انصرفوا . (١٨)

وفي هـذا الاصطدام المسلّح قال الراجز :

يزيدُ ياسيفَ أبي سَعِيـدْ (١٩) قد عَلِمَ الأقوامْ والجنـودْ

والجَمْـع يوم المجَمْـعِ المشهودْ أنّك يومَ التُّرْكِ صلبُ العودْ

وقال الأشقري :

والتُّرْكُ تعلمُ إذ لاقى جموعَهُمُ أن قد لقوه شِهاباً يَفْرِج الظُّلَما

بفِتْيَةٍ كأُسُودِ الغابِ لم يَجِدوا غير التأسّي وغير الصبرِ مُعْتَصَما

نرى شَرائج (٢٠) تَغْشى القومَ من عَلَقٍ (٢١) وما أرى نبوةً منهم ولا كزما (٢٢)

وتَحْتَهُمْ قُرَّحٌ (٢٣) يَرْكَبْنَ ما رَكِبوا من الكريهة حتى ينْتعلنَ دَمَا (٢٤)

---

(١٨) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن الأثير (٤/٤٧٢ ـ ٤٧٣) .

(١٩) ابو سعيد : هو المهلّب بن أبي صُفرة الأزديّ والد يزيد .

(٢٠) الشّرائج : جمع الشَّريج ، والشرائج : الوان مختلفة من كل شيء ، ويريد هنا من البشر .

(٢١) علق : جمع عَلَقَة . دود أسود يمتص الدم ويكون في الماء الآسن ، ويريد التهوين من شأنهم .

(٢٢) كزم فلان : هاب التقدم على الشيء ، فهو كَزِمٌ .

(٢٣) قُرَّح : جمع القارح ، والقارح من ذي الحافر : ما استتمّ الخامسة من عمره .

في حازَّةِ الموتِ حتى جَنَّ ليلُهُمُ
كِلاَ الفريقين ما وَلّى ولا انهزما (٢٤)

وحين حضرت الوفاة المهلّبَ ، دعا حَبيباً ومَنْ حضره من ولده ، ودعا بسهامٍ فَحزِمت ، وقال: « أترونكم كاسريها مجتمعةً ؟ » ، قالوا : لا قال : أترونكم كاسريها متفرّقةً ؟ » ، قالوا نعم ، قال : « فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصِلة الرَّحِم ، فانّ صلة الرَّحِم تنسئُ في الأجل ، وتُثْري المال ، وتُكْثِرُ العَدَد . وأنهاكم عن القطيعة ، فانّ القطيعة تُعْقِبُ النّار ، وتورث الذلّة والقِلّة ، فتحابّوا وتواصَلوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختَلفوا ، وتبارّوا تجتمعْ أمورُكم . إنّ بني الأُم يختلفون ، فكيف ببني العَلاّت (٢٥) ! وعليكم بالطّاعة والجماعة ، وليكن فعالُكم أفضل من قولكم . فإنِي أحبّ للرّجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه ، واتّقوا الجوابَ وزَلّةَ اللّسان ، فأنّ الرجل تزلّ قدمُه فينتعش من زلّته ، ويزِلّ لسانه فيهلِك . اعرِفوا لمن يغشاكم حقّه ، فكفى بغُدوّ الرجل ورَواحه إليكم تذكرةً له . وآثروا الجُوْدَ على البُخْل ، وأحِبّوا العَرَب واصطنعوا العُرْف . فان الرجل من العرب تَعِدُه العِدةَ فيموتَ دونَك ، فكيف الصنيعة عندَد ! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فانها أنفع في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فانْ أخَذَ رجل بالحزم فظهر على عدوّه قيل : أتى الأمرَ من وَجْهه ، ثم ظفر فحُمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرّطَ ولا ضيّعَ ، ولكنّ القضاء غالب ، . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنَن ، وأدب الصّالحين ، وإيّاكم والخِفّة

(٢٤) الطبري (٣٥١/٦ – ٣٥٢) .
(٢٥) العَلاّت : جمع العَلّة وهي الضرّة . وبنو العَلاّت : بنو رجل واحد من امهات شتى .

وكثرَةَ الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ ، وجعلتُ حبيباً على الجند حتى يَقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيدَ » ، فقال له المُفَضَّل : « لو لم تقدّمه ، لقدّمناه » .

ومات المهلّب ، وأوصى إلى حبيب ، فصلّى عليه حبيب ، ثمّ سار إلى (مَرْوَ) .

وكتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان واستخلافه إياه ، فأقرّه الحجّاج (٢٦) .

وهذا دليل واضح على ثقة المهلّب بابنه يزيد ، وتفضيله على سائر إخوته على الرغم من أنه لم يكن أكبرهم سناً ، فقد مات ابنٌ لحبيب بن المهلّب ، فقدّم أخاه يزيد ليصلي عليه ، فقيل له : أتقدّمه وأنت أسنَ منه ، والميت ابنك ! ؟ فقال : « إنّ أخي قد شرّفه الناس ، وشاع فيهم له الصيت ، ورمقته العرب بأبصارها ، فكرهت أن أضع منه ما قد رفعه الله تعالى » (٢٧)

ولم يكن يزيد موضع ثقة أبيه المهلّب وإخوته أبناء المهلّب حسب ، بل كان موضع ثقة أميره المباشر الحجّاج بن يوسف الثَّقَفِيّ الذي كانت خرُاسان إحدى ولاياته ، وثقة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الذي كان قمة الدولة التي لاتغيب الشمس عن بلادها ، وثقة النّاس عرباً وعجماً ، مما يدلّ على كفاياته العالية المتميّزة .

ولعلّ مما يجلب النظر ، أنّ يزيد حين استخلفه أبوه المهلّب على خُراسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) كان ابن ثلاثين سنة (٢٨) ، ولم يكن أكبر إخوته في السنّ ، واستخلاف الأكبر سناً من تقاليد العرب المعروفة

---

(٢٦) الطبري (٦/٣٥٤ - ٣٥٥) وابن الأثير (٤/٤٧٥ - ٤٧٦) وانظر وفيات الأعيان (٥/٣٣٠ - ٣٣١) .

(٢٧) وفيات الأعيان (٥/٣٢٧) .

(٢٨) المعارف (٤٠٠) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٢) .

التي قلّما يخرجون عنها إلاّ في حالة التفوّق الواضح بالكفايات للأصغر سناً على الأكبر منه ، مما يدلّ على تفوق يزيد في كفاياته على إخوته جميعاً : الكبير منهم والصغير .

وتَوَلّي خُراسان التي هي من أكثر الولايات الاسلامية أهميّة وتفجّراً في حينه ، ويزيد في الثلاثين من عمره ، دليل آخر على كفاياته العالية المتميزة .

لقد فرض يزيد نفسه بكفاياته العالية على الأحداث وعلى المناصب الرفيعة وهو لايزال في ريعان الشباب غضّاً فتيا ، فيا قرب ذلك من مولد ، ويابُعْد ذلك من سؤدد .

الفاتح

١ ـ المرحلة الأولى

أ . في سنة ثمانين الهجريّة (٦٩٩ م) . قطع المهلّب نهر (بَلْخ) (٢٩) ، وهو نهر (جَيْحُون) ونزل على (كِشّ) (٣٠) .

وأتى المهلّب وهو نازل على (كِشّ) ابن عمٍّ ملك (الخُتَّل) (٣١) ، وملك الخُتَّل يدعى (السَّبَل) (٣٢) ، فدعاه إلى غزوها .

(٢٩) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ، من اجلّ مدن خراسان واذكرها واكثرها خيراً وأوسعها غلّة ، تحمل غلّتها الى جميع خراسان والى خوارزم ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٥٥ ـ ١٥٦) ومعجم البلدان (٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤) وتقويم البلدان (٤٦٠ ـ ٤٦١) .

(٣٠) كش : مدينة تقارب سمرقند ، من اقليم الصغد احد أقاليم بلاد ماوراء النهر . انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٨١ ـ ١٨٢) ومعجم البلدان (٧/٢٥٠ ـ ٢٥١) وتقويم البلدان (٤٩٠ ـ ٤٩١) .

(٣١) الختّل : بلاد الوخش في قسمها الشمالي حيث مخرج نهر (وخشاب) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤٠١) .

(٣٢) السَّبَل : لقب ملك الختّل . وطرخون : ملك الصغد . رتبيل ملك كابل . واخشاد : ملك فرغانة . والسَّبَل يعنى اصطلاحاً ملك من ملوك ماوراء النهر والخاص بالختّل فقط من بلاد ماوراء النهر .

ووجّه المهلّب ابنه يزيد مع ابن عمّ ملك الخُتّل ، فنزل يزيد ناحية ، ونزل ابن عمّ ملك الخُتّل ناحية أخرى ، والناحيتان في أرض الخُتَّل .

وبيّتَ (السَّبَلُ) ابن عمّه . فأخذه وقتله .

وحصر يزيد قلعة ملك الخُتَّل ، فصالحوه على فدية حُملت إليه ، فرجع يزيد عنهم (٣٣) ، بعد أن أعاد فتحه من جديد .

وكان هذا الفتح على عهد المهلّب ، وكان يزيد يومها قائداً مرؤوسا .

ب . وبعد موت المهلّب ، أصبح يزيد سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) على خُراسان والياً وقائدا ، فغزا مغازا كثيرة ، واستعاد فتح (البُتَّم) (٣٤) على يد ابنه مُخَلَّد .

وغزا يزيد (خُوَارِزْم) (٣٥) وأصاب سبياً واستعاد فتحها (٣٦) .

وليس هناك نص يشير إلى سنة فتح (البُتَّم) و(خُوَارِزْم) ، ولكن يزيد بقي على خراسان من سنة اثنتين وثمانين الهجرية إلى سنة خمس وثمانين

(٣٣) الطبري (٣٢٥/٦) وابن الأثير (٤٥٣/٤) ، ووردت : السَّبَل في ابن الأثير (٤٥٣/٤) : الشبل ، وهذا خطأ النسّاخ ، ويبدو انهم لم يكونوا يعرفون معنى السَّبَل ، فجعلوه : الشبل الذي هو ابن الأسد ، ولا يخطأ ابن الأثير مثل هذا الخطأ ، ولكن النسّاخ الذين قد يجهلون التاريخ يمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ .

(٣٤) البتّم : اسم حصن منيع جداً ببلاد فرغانة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٧/٢) ، والبتَم : جبال شاهقة منيعة ، فيها حصون منيعة ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٨٤) .

(٣٥) خوارزم : اقليم من اقاليم ماوراء النهر ، يحدّه من الغرب بعض بلاد الترك ، ومن الجنوب خراسان ، ومن الشرق بلاد ماوراء النهر ، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً ، ويقع الاقليم في آخر نهر جيحون ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٦٨ ــ ١٧٠) ومعجم البلدان (٤٧٤/٣ ــ ٤٧٩) وتقويم البلدان (٤٧٧ ــ ٤٨١) .

(٣٦) البلاذري (٥٨٧) .

الهجرية (٧٠١ ـ ٧٠٤ م) ، فلا بدّ أن يكون فتح هذين الأقليمين خلال هذه المدّة الزمنيّة .

ج . وفي سنة أربع وثمانين الهجريّة (٧٠٣ م) ، غزا يزيد قلعة (نِيزْاك) بـ (باذَغيِس) (٣٧) ، وكان نيزك ينزل بهذه القلعة ،فتحينّ يزيد غزوه ، ووضع عليه العيون . وبلغ يزيد خروجه فخالفه إليها ؛ فلما بلغ نيزك قدوم يزيد قلعته رجع إليها ، فصالح يزيد على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكانت القلعة من أحصن القلاع وأمنعها ، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً لها .

وقد قال كعب بن مَعْدان الأشقريُّ في وصف القلعة والفتح :

وباذَ غِيْس التي مَنْ حَلَّ ذُرْوَتها
عزَّ الملوكَ فان شا جارَ أوْ ظَلَما
مَنِيْعَةٌ لم يَكِدْها قَبْلَهُ مَلِكٌ
إلاّ إذا واجَهَتْ جيشاً له وَجَما
تخالُ نيرانَها من بُعْدِ مَنْظَرِها
بعضَ النّجوم إذا ما ليلُها عَتَما
لمّا أطافَ بها ضاقتْ صدورهُمُ
حتى أقرّوا له بالحُكم فاحْتَكَما
فذلّ ساكنُها من بعد عِزَّتِهِ
يُعْطِي الجِزَيَ عارفاً بالذلّ مُهْتَضَما
وبعدَ ذلك أياماً نُعَدّدُها
وقبلها ما كَشَفْتَ الكرب والظُّلما

(٣٧) باذغيس : ناحية تشمل قرى من اعمال هراة ومرو الرّوذ ، قصبتها : بَوْن وبامين ، بلدتان متقاربتان ، وهي في بلاد خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١/٢) وتقويم البلدان (٤٥٤ ـ ٤٥٥) .

أعطاك ذاك وليُّ الرزقِ يقسمُه
بين الخلائقِ والمحرومُ مَنْ حُرِما
يداكَ إحداهُما تُسقي العدوَّ بها
سُمّاً وأُخرى نداها لم يَزَلْ دِيَما
فهل كَسَيْبِ يزيدٍ أو كنائله
إلاَّ الفُراتُ وإلاّ النيلُ حين طَمَا
ليسا بأجودَ منه حينَ مَدُّهِما
إذ يَعْلُوَانِ حداب الأرض والاَكما (٣٨)

وقال :

ثنائي على حيٍّ العَتيكِ بأنّها
كِرامٌ مَقارِيْها (٣٩)، كرام نصابُها (٤٠)
إذا عقدوا للجارِ حَلَّ بِنَجْوَةٍ
عزيزٌ مراقِيها ، منيعٌ هِضَابُها
نفى نَيْزَكاً عن باذَغِيْسَ ونيزكٌ
بمنزلةٍ أعيا الملوكَ اغتِصابُها
مُحَلِّقَةٍ دونَ السَّماء كأَنّها
غَمَامةُ صَيفٍ زَلَّ عنها سَحَابُها
ولا يبلغ الأَرْوَى شماريخَها العلا
ولا الطَّيرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها

(٣٨) الطبري (٣٨٦/٦) وانظر ابن الأثير (٤٩٨/٤ ــ ٤٩٩) .
(٣٩) المقار : جمع مَقَر ، وهو موضع الاستقرار ، ومحلٌ يتخذه الانسان مكاناً لاقامته ، ويريد بهم الذين استقروا في المدن والحواضر .
(٤٠) نصاب : الأصل والمرجع ، ويريد به رئيس القبيلة وشيخها .

وما خُوِّفَتْ بالذِّئبِ ولدانُ أهلها
ولا نَبَحتْ إلاّ النّجومَ كلابُها

تمَنَيْتُ أن ألقى العتيكَ ذوي النُّهى
مُسَلّطة تُحمى بملكٍ ركابُها

كما يتَمَنّى صاحبُ الحرثِ أعْطَشَتْ
مزارعُهُ غَيْثاً غزيراً رَبابُها

فأُسْقِيَ بَعْدَ اليأس حتى تحيَّرَتْ
جَداولها رِيّاً وعبّ عبابُها

لقد جمع الله النوى وتَشَعَّبَتْ
شعوبٌ من الآفاقِ شتى مآبها (٤١)

وقد حرصت على نقل هذا الشِّعر الجميل ، لأنه يصف وصفاً دقيقاً مناعة قلعة نيزك ، ويصف بشكل غير مباشر مبلغ ما تحمّله المسلمون من عناء شديد في فتحها .

وليس نيزك اسم شخص من الأشخاص ، بل لقب ملك باذغيس ، أحد الملوك المحلِّيين في خُراسان .

وقد نجح يزيد في مباغتة نيزك ، إذ استطاع تطويق القلعة ونيزك بعيد عنها ، مما أجبر نيزك على الصلح .

ومن الواضح أنّ هذه القلعة الحصينة ، كانت جيباً من جيوب المقاومة المعادية للمسلمين . فكان فتحها إيذاناً بالسيطرة الكاملة على منطقة باذغيس بأكملها .

ولما فتح يزيد القلعة ، كتب إلى الحجّاج بالفتح ، وكان يكتب له يحيى

---

(٤١) الطبري (٦/٣٨٧) وابن الأثير (٤/٤٩٩) .

ابن يَعْمر العَدْوانيِّ حليف هذَيْل (٤٢): «إنّا لحقنا العَدُوّ، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفةً، وأسرنا طائفةً، ولحقت طائفة برؤوس الجبال، وعَراعر (٤٣) الأودية، وأهضام (٤٤) الغيطان، وأثناء الأنهار»، فقال الحجّاج: «مَنْ يكتب ليزيد؟» فقيل له يحيى بنُ يَعْمرَ. وكتب الحجّاج إلى يزيد فحمله على البريد، فقدم عليه أفصح الناس.

وقال له: «أين وُلدت؟» قال: «بالأهواز» فقال: «فهذه الفَصاحة؟»، فقال: «حفظتُ كلام أبي وكان فصيحا». قال: «هل يلحن عَنْبَسة ابن سعيد؟»، قال: «نَعم كثيراً»، قال: «فَفُلان؟»، قال: «نعم»، قال: «فأخبرني عنّي أألحَن؟»، قال: «نعم، تلحَنُ لحْناً خَفِيّاً، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً، وتجعَل أنْ في موضع إنْ، وإنْ في موضع أنْ»، قال: «قد أجّلتُك ثلاثاً، فإنْ أجدْك بعد ثلاث بأرض العراق قتلْتك»، فرجع إلى خُراسان (٤٥).

وهكذا جنى على الكاتب الفصيح علمُه، فقد كان عالماً أكثر مما ينبغي كما يقول المثل، فلم يحتمله الحجّاج الذي كان لايحتمل أحداً كائناً مَن كان أفضل منه في أي شيءٍ من الأشياء.

والحجّاج ليس وحده يُعاني من هذه النقيصة على كل حال!

د. والذي يُؤخذ على يزيد أنه لم يَعْرِض لموسى بن عبد الله بن خازِم بسوء (٤٦)، وهو الذي كان أحد الخارجين على الدولة في (تِرْمِذ) فاتخذها

---

(٤٢) كان بنو هذيل معروفين بالفصاحة، وكانوا حجّة في الفصاحة والبلاغة والبيان، وشعراؤهم مشهورون.

(٤٣) عراعر: جمع عَرْعَرَة، وعرعرة كل شيء: اعلاه، يقال: عَرْعَرَة الجبل.

(٤٤) أهضام: جمع الهِضْم: المطمئن من الأرض، وبطن الوادي.

(٤٥) الطبري (٣٨٧/٦ ـ ٣٨٨) وابن الأثير (٤٩٩/٤).

(٤٦) الطبري (٤٠٣/٦) وابن الأثير (٥٠٨/٤).

مقراً له في بلاد ماوراء النهر ، وهو الذي قاتل مع ابيه عبدالله بن خازم سنتين ثم خرج يسير في بلاد خراسان حتى أتى ملك ترمذ فغلبه على مدينته وأخرجه منها واقام في حصنه خمسَ عشرة سنة ، وصار ماوراء النهر له لا ينافسه فيه أحد (٤٧) ، يسيطر على معظم أجزائه ، ويجبي الضرائب ويجمع الأموال ويأوي الخارجين على الدولة ويستعين بهم في حرب العرب وغير العرب .

وقد كانت بلاد ما وراء النهر ، هي المجال الحيويّ في الفتح واستعادة الفتح من جديد بالنسبة لأمير خُراسان ، فما كان ينبغي ليزيد السكوت عن موسى وسيطرته على تلك البلاد .

ولكن لم يكن يزيد وحده السّاكت عن موسى ، فقد سكت أبوه المهلّب من قبله على موسى أيضاً ، فحين قدم المهلّب أميراً على خُراسان ، لم يَعْرِض لابن خازم ، وقال لبنيه : « إيّاكم وموسى ، فانّكم لا تزالون ولاة هذا الثَّغر ما أقام هذا الثّطّ (٤٨) بمكانه ، فان قُتِل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خُراسان رجل من قَيْس » ، فمات المهلّب ولم يوجِّه اليه أحدا (٤٩) .

فلما عُزل يزيد وولي المفَضَّل ، سيرَ إليه الجيوش وقضى على موسى (٥٠) وكان سكوت يزيد عنه خطأً من أخطائه مهما تكن أسباب سكوته ، وكان قضاء المفضل على موسى حسنة من حسنات المفضّل بلامِراء ، فمهّد لفتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلي الذي خلفَ المفضّل ، لأنه قاتل أهل البلاد المفتوحة ولم يقاتلهم ويقاتل معهم موسى بن عبد الله بن خازِم وغيره من الخارجين على الدولة ، فكان فتح قتيبة بحق حسنة من حسنات المفضّل ، جرت على يدي قتيبة .

---

(٤٧) الطبري (٦/٤٠٩) .

(٤٨) الثط : خفيف شعر اللّحية والحاجبين ، والذي ثقل بطنه وبطؤت حركته .

(٤٩) الطبري (٦/٤٠٣) . (٥٠) ابن الأثير (٤/٥١١) .

٢ ـ المرحلة الثانية

أ . في سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) عزل الحجّاج بن يوسُف، عن خُراسان يزيدَ بن المهلّب وولّى أخاه المفُضَّل مكانه (٥١) .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ولّى سليمان بن عبد الملك خُراسان يزيد بن المهلّب (٥٢) .

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) غزا يزيد (جُرْجَان) (٥٣) و(طَبَرِسْتَان) (٥٤) ، وكان قد قَدِمَ خُراسان ، فأقام ثلاثة أشهر أو اربعةً ، فأعدَّ العُدَّة اللازمة للفتح ، وكان أهم ما حققه في الجانب الداخلي هو القضاء على مصادر الشَّغَب . وعلى رأسها وَكِيْع بن حسّان ابن قيس بن أبي سُود بن كَلْب بن عَوْف بن مالك بن غُدانة بن يَرْبوع والي خُراسان وقاتل قتيبة بن مُسْلِم الباهليّ . ووَكِيْع من بني تَميم ، وكان معروفاً بالشّجاعة والاقدام ، وله مواقف بطولية في أيام الفتح ، ولكنه كان أعرابياً ، وقد توّلى خُراسان بعد مقتل قتيبة تسعة أشهر أو عشرة ، ثمّ عُزل بيزيد بن المهلّب، فَحبَس وَكِيع واخذ أصحابه (٥٥) ، وبذلك استطاع يزيد السيطرة على (مَرْو) قاعدة الفتح المتقدمة .

---

(٥١) الطبري (٣٩٣/٦) وابن الأثير (٥٠٢/٤) وانظر البدء والتاريخ (٧٣/٦).
(٥٢) الطبري (٥٢٣/٦) وابن الأثير (٢٣/٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٢٤/١) والمعارف (٤١٦) .
(٥٣) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين خراسان وطبرستان ، فبعض يعدها من خراسان ، وبعض يعدها من طبرستان ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٥) ومعجم البلدان (٧٥/٣ ـ ٧٩) وتقويم البلدان (٤٣٨ ـ ٤٣٩) .
(٥٤) طبرستان : بلاد واسعة تضم بلداناً كثيرة منها : جرجان وآمُل واستراباذ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٤ ـ ١٢٥) ومعجم البلدان (١٧/٦ ـ ٢١) وتقويم البلدان (٤٣٢ ـ ٤٣٩) .
(٥٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥٢٧/٦ ـ ٥٢٨) .

أما ما حقّقه يزيد في الجانب العسكري، فهو حشد قوات ضاربة قادرةً على الفتح. فحشد في جيشه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشّام ووجوه أهل خُراسان والرّيّ، في مئة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك والمتطوعين (٥٦)

ولكي يضمن قاعدته المتقدِّمة وهي خُراسان، خلّف ابنه مَخْلَد عليها (٥٧)؛ وكان مخلّد حاد الذكاء ألمعياً شجاعاً على الرغم من صغر سنّه. كما سيرد ذلك وشيكا.

ولما أكمل يزيد الجانبين: الأمني في الداخل، وحشد جيشه حشداً متكاملاً، انطلق إلى هدفه في الفتح.

وسبب غزو جُرْجان وطَبَرِستان المباشر واهتمام يزيد بهما، أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك حين كان سليمان ولياً للعهد، كان سليمان كلّما فتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهليّ فتحاً يقول ليزيد: «ألا ترى إلى ما يفتح الله على قُتَيْبَة؟»، فيقول يزيد: «ما فَعَلَتْ جُرْجان التي قطعت الطريق. وأفسدت (قُومِس) (٥٨) و (نَيْسَابور) (٥٩)؟ هذه الفتوح ليست بشيءٍ. الشان هي جُرْجان!».

أما سبب الغزو غير المباشر. فهو استعادة فتح هذه المناطق الحيوية،

---

(٥٦) الطبري (٦/٥٣٢).

(٥٧) الطبري (٦/٥٣٢).

(٥٨) قومس: كورة كبيرة واسعة. تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة (دامغان). وهي بين الريّ ونيسابور، ومن مدنها المشهورة: بسطام وبيار، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٨٥ ـ ١٨٦) وتقويم البلدان (٤٣٢).

(٥٩) نيسابور: مدينة عظيمة من مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٥٦ ـ ٣٥٩) وتقويم البلدان (٤٥٠ ـ ٤٥١) والمسالك والممالك (١٤٥ ـ ١٤٧).

وبسط سيطرة الدولة عليها ، أسوة ببقية الأمصار المفتوحة وبخاصة في خُراسان وبلاد ما وراء النهر .

فلما أصبح سليمان بن عبد الملك خليفةً وولي يزيد خُراسان ، لم يكن ليزيد همة غير جُرْجان .

ولم تكن جُرْجان يومئذ مدينة ، إنما هي جبال ومخارِم (٦٠) وأبواب ، يقوم الرجل على باب منها ، فلا يستطيع أحدٌ أن يتغلّب عليه .

وابتدأ يزيد بحصار (قُهِسْتان) (٦١) ، وكان أهلها طائفة من الترك . وأقام يزيد بجيشه عليها ، وكان أهلها يخرجون ويقاتِلون ، فيهزمهم المسلمون في كلٍّ مرّة ، فاذا هُزموا دَخلوا الحصن .

وخرج الترك ذات يوم ، وخرج إليهم المسلمون ، فاقتتلوا قتالاً شديداً . وحمل محمد بن أبي سَبْرَة على أحد الترك الذي صدّ الناسَ عنه لقتاله بشجاعة فائقة ، فاختلفا ضَرْبَتَيْن ، فثبتَ سيف التركي في بيضة (٦٢) ابن أبي سَبْرَة ، وضربه ابنُ أبي سبرة فقتله ، ورجع وسيفه يقطر دماً وسيف التركي في بيضته ، فنظر الناس إلى أحسن منظر رأوه .

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً ينظر مكاناً يدخل منه عليهم ، وكان في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم ، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في نحو أربعة آلاف ، فقاتلوهم ساعة ، وقاتل يزيد قتالاً شديداً ، فسلم

---

(٦٠) مخارم : جمع مَخْرِم . والمخرم : الطريق في الجبل أو الرّمل . ومخرم الأكمة : منقطعها . ومخرم الجبل : انفه .

(٦١) قهستان : وردت في معجم البلدان (١٨٧/٧) : قُوهِستان ، وهو تعريب : كوهستان ، ومعناه : موضع الجبال ، لأن كوه هو الجبل بالفارسية ، وهي كورة على مفازة فارس من خراسان ، وتشتمل على عدّة مدن ، وهي قائن وتون وجنابذ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٧/٧ ـ ١٨٨) وتقويم البلدان (٤٤٤ و ٤٥٢) .

(٦٢) البيضة : الخوذة الفولاذية التي يُغَطّى بها الرأس في الحرب .

يزيد ورجاله وانصرفوا ، وكانوا قد عطشوا ، فانتهوا إلى الماء وشربوا ، ورجع عنهم العـدو .

ثمّ إنّ يزيد ألح في القتال ، وقطع عنهم المواد ، حتى ضعفوا وعجزوا ، فأرسل صُول . دهقان قُـهِستان إلى يزيد . يطلب منه أن يصالحه ويؤمنه على نفسه وأهله وماله ، ليدفع إليه المدينة ومافيها ، فصالحه وَوَفى له . ودخل يزيد المدينة . فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لايُحْـصى ، وقتل كثيراً من الترك ، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بالفتح .

ب . وأتى يزيد جُـرْجان . وكان أهل جُرجان قد صالحهم سعيد بن العاص . وكانوا يجبون أحياناً مئة ألف وأحياناً مِئَتَيْ ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف ، وربما أعطوا ذلك وربما منعوه . ثمّ امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خَراجا . ولم يأتِ جُرجانَ بعد سعيد بن العاص أحد ، ومنعوا ذلك الطريق ، فلم يكن يسلك طريق خُراسان أحد إلاّ على (فارس) و(كَـرْمان) . وأوّل مَنْ صيـّر الطريق من (قُوْمس) قتيبة بن مسلم حين وليَ خُراسان .

وبقي أمر جُرجان كذلك بعيداً عن سيطرة الدولة اسلامية ، حتى وليَ يزيد وأتاهم ، فاستقبلوه بالصُّلح وزادوه وهابوه ، فأجابهم إلى الصّلح . ولما صالح يزيد (صُوْل) (٦٣) وفتح (البُـحَيْرَة) (٦٤) و(دِهِسْتان)(٦٥)

(٦٣) صول : لفظة تركية ، وهو اختصار (صَوْل قول اغاسـي) اي رئيس الجناح الأيسر ، وهو من ضباط الصف ، ورتبته أعلى رتبة بين ضباط الصف ، بين الملازم ورئيس العرفاء ، هكذا معناه في الجيش العثماني ، ويبدو انه كان برتبة ضابط في الأيام القديمة .

(٦٤) البحيرة : جزيرة في البحر ، بينها وبين قهستان خمسة فراسخ ، وهي من جرجان مما يلي خَوارِزم ، انظر ابن الأثير (٥/٣٢) .

(٦٥) دهستان : مدينة مشهورة عند مازندران ، ومعناها بالفارسية : موضع القرى ، وهي بين جرْجان وخَوارزم ، وهي آخر حدود طبرسـتان ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٣٨ ــ ٤٣٩) .

صالح أهل جرجان على سعيد بن العاص (٦٦) .

جـ . ولما فتح يزيد جُرْجان وقهستان ، طمع في فتح (طَبَرِسْتَان) ، فعزم على أن يسير إليها ، ويفتحها .

واستعمل محمد بن المُعَمَّر اليَشْكُري على قُهِسْتان وخلّف معه اربعة آلاف ، ثمّ أقبل إلى أداني جُرجان مما يلي طبرستان ، فاستعمل على (ايذوسا) (٦٧) راشد بن عمرو (٦٨) وجعله في أربعة آلاف ، وكانت هاتان الحاميتان لحماية خطوط مواصلات يزيد .

ودخل يزيدطبرستان ، فأرسل إليه (الأصبهبذ) صاحبها (ملكطبرستان) يسأله الصّلح وأن يخرج من طبرستان ، فأبى يزيد ورجا أن يفتتحها .

ووجّه يزيد أخاه أبا عُيَيْنَة من وجه ، وابنه خالد بن يزيد من وجه ، وأبا الجَهْم الكلبيّ من وجه ، وقال : « إذا اجتمعتم فأبو عُيينة على الناس » ، فسار أبو عُيَيْنَة ، وأقام يزيد مُعَسْكِرا .

واستنجد الاصبهبذ بأهل (جِيْلان) (٦٨ أ) و(الدَّيْلَم) (٦٩)

---

(٦٦) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٢/٦ ــ ٥٣٩) و (٢٧١/٤) وابن الأثير (٢٩/٤ ــ ٣٠) و (١١١/٣) ، وانظر ابن خلدون (١٠١٩/٢) والبدء والتاريخ (٤٣/٦) والعبر (١١٦/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٣١٩/١) ووفيات الأعيان (٣٤١/٥) .

(٦٧) ابن الأثير (٣٠/٥) ، وفي الطبري (٥٣٩/٦) : اندرِسْتان .

(٦٨) في الطبري (٥٣٩/٦) ، اسد بن عمرو او عبدالله بن الربعة .

(٦٨أ) جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، يحيط بها من الغرب شيىء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وشيء من أذربيجان وبعض بلاد الرى ، ويحيط بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان ، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر ، وجيلان غربي طبرستان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٤/٣) وتقويم البلدان (٤٢٦ ــ ٤٢٧) .

(٦٩) الديلم : اسم بلاد واسعة ، يحيط بها من الغرب شيء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزويا وشيء من ←

فأتوه ، فالتقوا في سفح أحد جبال طبرستان ، فانهزم المشركون في الجبل . وطارد المسلمون المنهزمين حتى انتهوا إلى فم الشِّعْب (شِعْب الجبل) ، فدخله المسلمون . وصعد المشركون الجبل ، وأتبعهم المسلمون يرومون الصعود ، فرماهم العدوّ بالنُّشّاب والحجارة ، فانهزم أبو عُيَيْنَة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل ، حتى انتهوا إلى عسكر يزيد .

وكفّ العدو عن مطاردة المسلمين . وخافهم الأصبهبذ ، ولكنه كتب إلى المَرْزُبان (٧٠) المُقَدَّم في أهل جُرجان يسأله أن يُبَيِّتَ مَنْ عنده من المسلمين . وأن يقطعوا عن يزيد المواد التموينيّة والطريق فيما بينه وبين بلاد المسلمين ، ويَعِدُه أن يكافئه على ذلك . وقال في رسالته : « إنا قد قتلنا يزيد ومَن معه . فأقتل مَنْ عندك من العرب » . وثار أهل جُرجان بالمسلمين ، فقتلوهم أجمعين وهم غارّون في بيوتهم ليلاً ، وقُتل عبد الله بن المُعَمَّر وجميع مَنْ معه . فلم ينج منهم أحد ، وكتب المرزبان بأخذ المضايق والطرق .

وبلغ ذلك يزيدَ وأصحابه . فعظم عليهم وهالهم .

وفزع يزيد إلى حَيَّان النَّبطي أحد الرجال العقلاء من العجم الذين أسلموا . وقال له : « لايمنعك ما كان مني إليك ، من نصيحة المسلمين ، وقد جاءنا عن جُرْجان ما جاءنا . فاعمل في الصُّلح » .

وقصد حيّان الأصبهبذ . فقال : « أنا رجل منكم ، وإن كان الدِّين فرّق بيني وبينكم . فأنا لكم ناصح ، فأنت أحبّ إليّ من يزيد ، وقد بعث يستمدّ . وأمداده منه قريبة . وإنما أصابوا منه طرَفاً ، ولست آمَنُ أن

أذربيجان وبعض بلاد الريّ . ويحيط بها من جهة الشرق بقيّة الريّ وطبرستان ، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٢٦ – ٤٢٧) والمسالك والممالك (١٢١ – ١٢٦) .

(٧٠) المرزبان : الرئيس من الفرس . جمعها : مرازبة .

يأتيك مالا تقوم له ، فأرِحْ نفسك منه وصالحه ، فأنك إن صالحته صيرّ حدّه على أهل جُرجان بغدرهم وقتْلهم أصحابه » .

ويبدو أنّ الأصبهبذ كان خائفاً من المسلمين ، لأن اندحار أبي عُيَيْنَة ابن المهلّب قضى على جزء من جيش المسلمين حسب ، كما أنّ إبادة المسلمين في جُرْجَان قضى على جزء آخر من جيش المسلمين أيضاً ولا تزال القوّة الضّاربة الأصلية من جيش المسلمين بقيادة قائدها العام يزيد سالمة وجاهزة للقتال ؛ كما أنّه قدّر أنّ المسلمين لن يسكتوا على مالحق بجيش يزيد من خسائر ، وهم بدون شك سينتقمون اليوم أو غدا ، لذلك آثر السّلامة ، وصالح المسلمين على سبعمائة آلف . وقيل : خمسمائة ألف درهم ، او أربعمائة وِقْر (٧١) زعفران أو قيمته من العَيْن (٧٢) ، وأربعمائة رجل ، على كل رجلٍ منهم بُرْنُس (٧٣) وطَيْلَسَان (٧٤) ، ومع كل رجل منهم جام من فضّة وخرقة حرير وكسوة .

ورجع حيّان إلى يزيد ، فقال : « ابعث مَن يَحْمِل صُلحهم » ، فقال : « من عندهم أو من عندنا ؟ ! » قال : « من عندهم » ، وكان يزيد قد طابت نفسه ان يعطيهم ماسألوا ويرجع الى جرجان ، فارسل يزيد من يقبض ما صالحهم عليه حيان ، فلما قبض ما صالحهم عليه انصرف الى جرجان (٧٥) .

وكان يزيد قد غرّم حيانا مئتي الف درهم ، فخاف ألا يناصحه ولكن ايمان حيّان كان أقوى من حقده ، فنصح المسلمين لأنه منهم ، (فنَسي نفسه من أجلهم ، ولو كان الأمر يخصّ يزيد بالذّات ، لاختلف الامر كثيرا .

---

(٧١) الوقر : الحمل الثقيل .
(٧٢) العين : ماضرب نقداً من الدنانير ، يقال : اشتريت بالعين لا بالدين .
(٧٣) برنس : كل ثوب راسه منه ، ملتزق به . وبرنس : قلَنسوة كبيرة .
(٧٤) الطيلسان : ضربٌ من الأوشحة يلبس على الكتف ، أو يحيط بالبدن ، خالٍ عن التفصيل والخياطة ، والكلمة فارسية معرّبة .
(٧٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٣٩ ـ ٥٤١) وابن الأثير (٥/٣٠ـ٣٢) .

د . وقيل : إنّ سبب سير يزيد إلى جُرجَان ، أنّ (الصُّوْل) التركي كان ينزل قُهِسْتان والبُحيرة ، وكان يُغير على فَيرُوز بن قُول مَرزُبان جُرْجان فيصيب من بلاده ، فخافه فيروز فسار إلى يزيد بخُراسان وقدم عليه ، فسأله يزيد عن سبب قدومه فقال : « خفتُ صُوْلاً فهربت منه ، وقد أخذ صول جُرجان » . وقال يزيد لفيروز : « هل من حيلة لقتاله ؟ » . قال : « نعم ، شيءٌ واحد إن ظفرتَ به قتلته واستسلم لك » ، قال : « ما هو ؟ » ، قال : « تكتب إلى الأصبهبذ كتاباً تسأله فيه أن يحتال لصوْل حتى يقيم بجُرجان ، واجعلْ له على ذلك جُعْلاً ، فانه يبعث بكتابك إلى صول ، يتقرّب به إليه ، فيتحوّل عن جُرجان ، فينزل البحيرة ، وإن تحوّل عن جُرجان وحاصرتَهُ ظفرتَ به » .

وكتب يزيد إلى الأصبهبذ بما أشار به عليه فيروز ، وضمن له خمسين ألف دينار إن هو حبس صولاً عن البحيرة ليحاصره بجرجان ، فأرسل الأصبهبذ الكتاب إلى صول ، فلما أتاه الكتاب رحل إلى البحيرة ليتحصّن بها .

وبلغ يزيدَ مسيرُه ، فخرج إلى جُرجان ومعه فيروز ، واستعمل على خراسان ابنه مَخْلَداً (٧٦) .وعلى سَمَرْ قند وكِش ّ ونَسَف وبُخارى ابنه معاوية ، وعلى طَخَارِستان حاتَم بن قَبِيْصَة بن المهلّب ، وأقبل حتى أتى جُرجان ، فدخلها ولم يمنعه منها أحد . وسار منها إلى البحيرة ، فحصر صولاً بها فكان يخرج إليه صول فيقاتله ثمّ يرجع . ومكث يزيد ستة أشهر محاصراً صولاً ورجاله ، فأصيب صول ومَنْ معه بالمرض (٧٧) والموت.

---

(٧٦) مَخْلَد : بفتح الأول ، وسكون الثاني ، وفتح الثالث ، وهذا هو الصواب، والخطأ في تحريكه بغير ذلك ، كما نجده في بعض المصادر والمراجع ، اذ يضمون الأول ويفتحون الثاني ، فيصبح : مُخَلَد ، وليس في الأحياء مخلد .

(٧٧) اصيبوا بمرض السُوَاد : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء المِلْح .

وأرسل صول يطلب الصُّلح على نفسه وماله وثلاثمائة من أهله وخاصّته ويسلم إليه البحيرة ، فأجابه يزيد ، فخرج صول بماله وثلاثمائة ممّن أحبّ ، وصار مع يزيد ، فقُتل من رجاله كثير ، ومَنّ يزيد على الآخرين ، فكان صول مثالاً سيئاً للقائد ، لأنّه اشترى نفسه وذويه بموت رجاله .

وقال الجُندّ ليزيد : أعطنا أرزاقنا ، فدعا إدريس بن حنظلة العَمّي وقال : « أحْصِ لنا ما في البحيرة حتى نُعطي الجند » ، فدخلها إدريس ، فلم يقدر على إحصاء ما فيها فقال ليزيد « فيها ما لا استطيع احصاءه ، وهو في ظروف فتحصي الجواليق ونعلم ما فيها ونقول للجند : ادْخلُوا فخذُوا ، فمن أخذ شيئاً عرَفنا ما أخذ من الحنطة والشّعير والأرُز والسمسم والعَسَل » .

وأحصَوا الجَواليق عدداً ، وعلّموا كل جُوالَق ما فيه ، وقالوا للجند : خذوا ، فكان الرجل يخرج وقد أخذ ثياباً أو طعاماً أو ما حَمَل من شيء ، فيكتب على كلّ رجلٍ ما أخَذ ، فأخذوا شيئاً كثيرا .

وكان على خزائن يزيد رجل يدعى : شَهْر بن حَوْشَب ، فرفعوا عليه أنه أخذ خريْطة (٧٩) ، فسأله يزيد عنها ، فأتاه بها ، فقال بعضهم :

لقد باعَ شَهْرٌ دينَه بخريطة
فمن يأمَنُ القُرّاء بَعْدَك ياشَهْرُ !

وقال مُرَّة النَّخَعيّ :

يا ابن المهلّب ما أردتَ إلى امرئٍ
لولاك كان كصالحِ القُرّاء

وإخبار يزيد عن الخريطة التي حجزها شَهْر لنفسه ، دليل على الرقابة الدقيقة على تصرّفات الأشخاص ، والحرص الشديد على أموال الدولة ، والاحصاء

(٧٨) الجواليق : جمع الجُوالَق ، وهي الفرارة ، معرّبة ، وتجمع الجُوالَق : جوالق وجَوالِيق ، وجُوالِقات . والجُوالِق كالجِوالق ، بضم الجيم وكسرها .

(٧٩) الخَرِيطَة : وعاء من جلدٍ أو نحوه يُشَدّ على ما فيه .

الدقيق للغنائم ، مما يصعب تنفيذه حتى في هذه الأيام .

كما أنّ تصرّف شهر في حجز الخريطة لنفسه ، كان مدعاة لاستهجان الرأي العام في حينه ، مما يجعل المجاهدين يحرصون أعظم الحرص على الغنائم ، فلا يأخذون منها إلاّ ما يستحقون .

وصدق الله العظيم : (ومَن يَغْلُلْ يَأْتِ بما غَلّ يوم القيامة ، ثم تُوَفّى كلُّ نفس بما كَسَبَتْ ، وهُمْ لا يُظْلَمون) (٨٠) .

وأصاب يزيد تاجاً فيه جواهر ، فقال : « أترون أحداً يزهد في هذا ؟! » ، قالوا : لا ! فدعا محمد بن واسع الأزْدِيّ ، فقال : « خذ هذا التاج » ، قال : « لا حاجة لي فيه ! » ، قال : « عزمتُ عليك » ، فأخذه .

وأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به ، فلقى سائلاً ، فدفعه إليه . وأخذ الرجلُ السائل وأتى يزيد وأخبره ، فأخذ يزيد التاج ، وعوّض السائل مالاً كثيرا (٨١) .

والفرق بين الروايتين هو في الحافز الذي حفز يزيد على غزو جُرْجان ، وقد يكون الحافزان تضافرا على حفز يزيد على المسير إلى جُرجان واستعادة فتحها . وهذا ما أراه في الحافز لهذه الغزوة : رغبة يزيد في استعادة فتح جُرجان تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه لسليمان بن عبد الملك ، وتشجيعُ فيروز له على استعادة فتحها .

ومهما قيل في هذه المرحلة من جهاد يزيد ، فانّها كانت إخفاقاً كاملاً ، والاخفاق يقع على عاتق القائد حتى ولو لم يكن مسؤولاً عن أسباب هذا الاخفاق . إذ لا يمكن أن نلوم يزيد على هزيمة جيش أبي عُيَيْنَة بعد أن اندفع في مطاردة العدو المنهزم في الجبال على غير هدى وبصيرة في أرض يجهل

---

(٨٠) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٦١) ، وغَلّ فلانٌ غلولاً : خان في المغنم وغيره ، وكان السلف الصالح أبعد ما يكونون عن الغلول .

طبيعتها كلّ الجهل ، فاندفع بالعمق في مطاردته دون مسوِّغ . كما لايمكن أن نلوم يزيد على التخلّي عن الحذر والحيطة من حامية ابن المُعَمَّر في محيط معادٍ في منطقة وعرة بعيدة عن جيش يزيد من جهة وقاعدة المسلمين المتقدِّمة في خُراسان من جهة أخرى .

ولكنّ القائد دائماً يصطلى بنار لم يضرمها ولا يرضى باضرامها .

٣ ـ المرحلة الثالثة

أ . لما صالحَ يزيد أصبهبذَ طَبَرِستان ، سار إلى جُرجان ، وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السّيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين (٨٢) .

وأتى يزيد جُرْجان ، فحصر أهلها بحصن (فجاه) (٨٣) الذي جمع المَرْزبان أصحابه فيه ، ويبدو أنه أحد الحصون المنيعة القريبة من مدينة جُرْجان الحالية ، ومَنْ يكون بها لايحتاج إلى عدّة من طعام أو شراب ، ويظهر أنها تقع على مصدرٍ للمياه ، وقد كُدِّست فيها الأرزاق والعلف والقضايا الاداريّة الأخرى .

وحصرهم يزيد في القلعة سبعة أشهر ، وهم يخرجون إليه في الأيام ، فيقاتلونه ويرجعون إلى الحصن ، دون أن يستطيع يزيد أن يحملهم على الاستسلام ، لأن حول الحصنِ غياضاً ولا يَعرِف لهم مَأتىً إلاّ من

---

(٨١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٨/٦ ـ ٥٣٩) وابن الأثير (٣٢/٥ ـ ٣٣).

(٨٢) يريد : أن تكبدهم خسائر جسيمة في الأرواح ، فتختلط الدماء الغزيرة بالمياه الجارية على الأرحاء . فتطحن الطحين ويأكل منه ، ليبرّ يمينه .

(٨٣) فجاه : جاء في ابن الأثير (٣٤/٥) كذلك ، أما في الطبري (٥٤٦/٦) فقد جاء اسم هذا الحصن : وجاه ، وحاولت أن اجد ذكره في المصادر الجغرافية العربية القديمة ، فلم افلح .

وجهٍ واحد ، ولأنّ المُرْزبان قائد الحصن قد كدّس ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، ولأنّ المرزبان ورجاله المحصورين في الحصن يعلمون أنّ استسلامهم معناه الموت لغدرهم وإبادتهم المسلمين غدرا .

وطال أمد الحصار كثيراً ، فبينما هم على ذلك ، إذ خرج رجل من عجم خُراسان ينصّيد ، وقيل : رجل من طيّئ ، فأبصر وعلاً في الجبل ، فأتبعه يرقى في الجبل على أثر الوعل ، فما شعر الرجل إلاّ وهو يشرف على معسكر أهل جُرجان في حصنهم ، فاكتشف بذلك طريقاً جديدة تؤدي إلى الحصن مباشرة

ورجع الرجل أدراجه ، وجعل يخرق قباءه ويعقد على الشَجر علامات ، حتى عاد إلى معسكر المسلمين بعد أن أشّر الطريق بقطع من قبائه .

وأتى الرجلُ يزيدَ ، فأخبره باكتشافه الجديد ، فضمن له يزيد هبة مالية مجزية إن دلّهم على الحصن ، فانتخب ثلاثمائة رجل استعمل عليهم يزيدُ ابنَه خالد بن يزيد ، وقال له : « إن غُلبتَ على الحياة ، فلا تُغلبنّ على الموت . وإياك أن أراك عندي مهزوما » .

وقال يزيد للرجل : متى تَصِل إليْهم ؟ » ، قال : غداً عند العَصْر فيما بين الصّلاتين » ، فقال : « امضوا على بركة الله ، فاني سأجْهد على مُنَاهَضَتهم غداً عند صلاة الظهر .

وسارت جماعة المغاوير بقيادة خالد بن يزيد ، فلمّا كان الغد وقت الظُّهر . أحرق يزيد كلّ حطبٍ كان عندهم ، فصار مثل الجبال من النيران .

ونظر العدو إلى النيران ، فهالهم ذلك . فخرجوا إلى المسلمين .

وتقدم إليهم يزيد ، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة ، والتحم الجانبان التحاماً قريباً . فهجم أصحاب يزيد الذين ساروا في الطريق الجبلي على العدو قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه ، ويزيد يقاتلهم من هذا الوجه ، فما

شعروا إلاّ بالتكبير من ورائهم ، فانسحبوا جميعاً إلى حصنهم وقد أثرّت المباغتة في معنوياتهم تأثيراً سيئاً .

وطاردهم المسلمون مطاردة عنيفة ، فاستسلموا دون قيد أو شرط وسبى يزيد ذراری العدو الغادر ، وقتل مقاتليهم ، وأجرى الماء على دم القتلى وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ويبرّ بيمينه ، فطحن وخبز وأكل .

وبنى يزيد مدينة جُرْجان في مكانها الحاليّ ، ولم تكن قبل ذلك بُنِيت مدينة ، ثم رجع إلى خُراسان (٨٤) .

ب . وقيل : إنّ يزيدَ دعا جَهْم بن زَحْر ، فبعث معه أربعمائة ، حتى أخذوا في المكان الذي دُلّوا عليه ، وقد أمرهم يزيد فقال : « إذا وَصَلْتُم إلى المدينة فانتظروا ، حتى إذا كان في السَّحَر فكبّروا ، ثم انطلقها نحو باب المدينة ، فانّكم تجدوني وقد نهضت بجميع الناس إلى بابها » ، فلما دخل ابن زَحْر المدينة أمْهَل ، حتى إذا كانت السّاعة التي أمره يزيد أن ينهض فيها ، مشى بأصحابه ، فأخذ لايستقبل أحداً من أحراسِهم إلاّ قتله . وكبّر ، ففزع أهــل المدينة فزعاً لم يَدخُلهم مثلهُ قطّ فيما مضى ، فلم يَرعهم إلاّ والمسلمون معهم في مدينتهم يكبّرون ، فَدُهشوا فألقى الله في قــلوبهــم الرُّعب ، وأقبــلوا لايَدْرون أين يتوجّهون !

غيرَ أنّ عِصابةً منهم ليسوا بالكثير ، قد أقبلوا نحو جَهْم بن زَحْر ، فقاتلوا ساعة ، فدُقّت يدُ جَهْم ، وصبرَ لهم جَهْم وأصحابُه ، فلم يُلْبِثوهم أن قتلوهم إلاّ قليلا .

وسمع يزيد بن المهلّب التكبيرَ ، فوثب في النّاس إلى الباب ، فوجدوهم قد شَغَلَهم جَهْم بن زَحْر عن الباب ، فلم يجد عليه مَن يمنَعُه ولا يَدْفَع عنه كبير دَفع ، ففتح البابَ ودخلَها من ساعته ، فأخرج مَن كان

(٨٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٤١ ـ ٥٤٣) وابن الأثير (٥/٣٤ ـ ٣٥) .

فيها من المُقاتلة وقتلهم ، وسبى أهلها ، وأصاب مَن كان فيها . (٨٥)

ومن الواضح أنّ الرواية الأولى أقرب للمنطق والعـقل ، وأبعد عن الصدفة والخرافة . واشبه بالخطة العسكرية المتكاملة . التي تعتمد تطويق المحاصَرين ، ومباغتتهم في وقت لايتوقعونه ومكان لايتوقعونه أيضاً . وإجبار المحاصَرين على الخروج من حصنهم لاستطلاع ما وراء إيقاد النيران الضخمة من أحداث ، والهجوم عليهم من الجبهة الأمامية وضربهم من الخلف بالمغاوير من أصحاب يزيد بقيادة ابنه ، مما أدىّ إلى ارتباك العدو واستسلامه .

جـ . وكتب يزيدُ إلى سليمان بن عبد الملك : « أما بعد ! فان اللهَ قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً ، وصَنعَ للمسلمين أحسنَ الصُّنْع ، فلِربِّنا الحمدُ على نعِمه وإحسانه ، أظهرَ في خلافة أمير المؤمنين على جُرْجان وطبرِستان ، وقد أعْيا ذلك سابُورَ ذا الأكتاف وكسرى قُباذ وكسرى هُرْمُز ، وأعْيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان ومنْ بعدهما من خلفاء الله ، حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين ؟ كرامةً من الله له ، وزيادة في نِعمه عليه . وقد صار عندي من خُمس ما أفاءَ الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذي حق حقُهُ من الفـي والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » .

وقال له كاتبه المُغيرة بن أبي قُرَّة مولى بني سَدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنّك من ذلك بين أمرين : إما استَكْثَره فأمركَ بحَمْله ، وإما سَخَتْ نفسُه لكَ به فسَوّغَكَهُ فتكلّفت الهديَة ، فلا يأتيه من قِبلك شيءٌ إلاّ استقلّه ، فكأني بك قد استغرقْتَ ما سمّيتَ ولم يقع منه موقعاً ، ويبقى المال الذي سمّيت مخلّداً عندهم عليك في دواوينهم ، فان ولِيَ والٍ بعدَه أخذكَ به ، وإن ولِيَ مَنْ يتحاملُ عليك لم يرْضَ منك بأضعافه ،

(٨٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥٤٣/٦ ـ ٥٤٤) وابن الأثير (٣٥/٥) .

فلا يُمْضِ كتابك ، ولكن اكتب بالفتح وسَلْهُ القُدومَ فتُشافِهه بما أحببتَ مُشافَهةً ، ولا تُقَصِّر ، فانك إنْ تُقَصِّر عما أحببتَ أحرى من أن تكثِّر » ، فأبى يزيدُ وأمضى .

وقال بعضهم : كان في الكتاب أربعة آلاف ألف (٨٦) .

ولا يخلو كتاب يزيد من مبالغة واضحة ، فما أعْيا فتحُ طَبَرِسْتان وجُرْجان الفاروقَ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فقد فتحها سُوَيْد من مُقَرِّن المُزَنِي (٨٧) سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢) م على عهد عمر ابن الخطّاب (٨٨) ، كما استعاد فتحهما سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر سنة ثلاثين الهجرية على عهد عثمان بن عفّان رضى الله عنه (٨٩) .

ولما وليَ معاوية بن أبي سفيان وَلّى مَصْقَلَة بن هبيرة الشَّيباني أحد بني ثعلبة بن شيبان طَبَرِستان ، فسار إليها ومعه عشرة آلاف (٩٠) رجل ، فأوغل فيها يسبى ويقتل ، فلما تجاوز المضايق والعِقاب ، أخذها عليه وعلى جيشه العدو عند انصرافه للخروج ، ودَهْدهُوا عليه الحجارة والصخور من الجبال ، فهلك أكثر جيشه وهلك مَصْقَلة ، فضرب الناس به مثلاً ، فقالوا : « لا يكون هذا حتى يَرجع مَصْقَلة من طَبَرِستان ! » (٩١) . . . . . فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفّظوا وتحذّروا من التوغّل فيها (٩٢) .

---

(٨٦) الطبري (٥٤٤/٦ ـ ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٣٥/٥ ـ ٣٦) .
(٨٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح فارس (١٩٥ ـ ٢٠١) .
(٨٨) انظر التفاصيل في الطبري (١٥١/٤ ـ ١٥٣) وابن الأثير (٢٥/٣) .
(٨٩) انظر التفاصيل في الطبري (٢٦٩/٤ ـ ٢٧١) وابن الأثير (١٠٩/٣ ـ ١١١) .
(٩٠) في معجم البلدان (٢٠/٦) : عشرون ألفاً .
(٩١) انظر الطبري (٥٣٥/٦ ـ ٥٣٦) .
(٩٢) معجم البلدان (٢٠/٦) .

وكان يكفي يزيد أن ينصّ في كتابه على استعادة فتح جُرْجان وطَبَرِستان، وكفى بذلك له فخرا، وأعاد فتح طريق خُراسان من ناحية (قومِس) بعد أن امتنع أهل طبرسان وقطعوه فلا يسلكه المسلمون إلاّ على خوف شديد منهم، فكان الطريق إلى خُراسان من فارس إلى كَرْمان إلى خُراسان، وأول من صيرّ الطريق من قومِس إلى خُراسان قُتَيْبة بن مُسْلِم حين ولي خُراسان (٩٣)، فلما استعاد يزيد فتح طبرستان أصبح طريق قُومِس إلى خُراسان سالكاً وأمينا (٩٤).

لقد كانت معاناة يزيد في فتح جُرجان وطبرستان صعبة للغاية، وكان صبره على الحصار لمدة طويلة جميلا جداً، وكان صبره الجميل دليلاً عملياً على أنّ العرب يصبرون على الحصار الطويل خلافاً لما يزعمه المغرضون بأنّ العرب لايصبرون على حصار طويل، على أن يكون القائد قادراً وذا كفاية قياديّة عالية، كما كان عليه يزيد.

لقد كان استعادة فتح جُرجان وطبرستان إنجازاً عظيماً من أهم إنجازات يزيد بن المهلّب قائدا.

وبقدر ما نفع هذا الأنجازُ المسلمين بعامة، بقدر ما أضر بيزيد بخاصة، فقد حوسب حساباً عسيراً على أرباحه المادية في هذه الغزوة كما نصّ عليها كتابه، فندم على مافرّط في ضخامة المال، ولات ساعة مَنْدم.

في ميدان الصّراع الداخلي

١ – في حرب الخوارج

كان المهلّب بن أبي صُفْرَة من أبرز القادة الذين حاربوا الخوارج وانتصروا عليهم إن لم يكن أبرزهم على الاطلاق، وكان يزيد وسائر أولاده من ألمع

(٩٣) ابن الأثير (٣/١١١).
(٩٤) الطبري (٦/٥٣٥).

المقاتلين الذين أعانوا أباهم المهلّب على تحمّل أعبائه القتالية ، وعاونوه في ميادين القتال .

وأوّل ماورد ذكر يزيد في حرب الخوارج كان في حوادث سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فقد كانت هناك حرب بين المهلّب والخوارج في (كَرْمان) ، فانتصر فيها المهلّب على الخوارج . وبعث المهلّب إلى الحجاج بن يوسف الثّقفي مُبَشّراً ، فلما دخل على الحجّاج أخبره عن الجيش وعن الخوارج وذكر حروبهم ، وأخبره عن المهلّب فقال : « المُغيْرَة فارسهم وسيّدهم ، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيّهم قَبِيْصة ، ولا يستحي الشّجاع أن يفرّ من مُدْرِكة ، وعبد الملك سُمٌّ ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمدٌ ليث غاب ، وكفاك بالمفضّل نجدة » ، فقال الحجاج : « فأيهم كان أنجد ؟ » ، فقال : « كانوا كالحلْقة المفرغة ، لا يُعرف طرفها » ، فاستحسن الحجّاج قوله ، وكتب إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولى كَرْمان مَنْ يثق به ، ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه ، فاستعمل على كَرْمان يزيد ابنه . (٩٥)

وفي معارك كَرْمان التي انتصر فيها المهلّب على الخوارج انتصاراً مؤزّرا ، أخرج المهلّب بنيه ، كلّ ابنٍ له على كتيبة ، وأخرج النّاس على راياتهم . وجاء موفد الحجاج البَراء بن قَبِيْصَة الذي بعثه إلى المهلّب ليراقب بلاءه وبلاء بنيه في حرب الخوارج ، فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم . وأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال ، فيقتلون أشدّ قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، ثمّ انصرفوا .

وجاء البَرَاء بن قَبيصة إلى المهلّب فقال له : « لا والله ، مارأيت كبَنيْكَ فُرساناً قط ، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط ، ولا رأيتُ مِثْلَ

(٩٥) ابن الأثير (٤/٤٤٠ ــ ٤٤١) .

قوم يُقاتلونك قط أصبرَ ولا أبْأس ، أنت والله المعذور » .

حتى إذا كان عند العصر ، خرج المهلّب إلى الخوارج بالناس وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوا كقتالهم في أول مرّة (٩٦) .

وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلّب ، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم ، فقال : « آنَسَ الله الاسلام بتلاحقكم ! أما والله ، لئن لم تكونوا أسباط نُبوّة ، إنكم لأسباط مَلْحَمة » (٩٧) .

لقد خاض يزيد غمار قتال الخوارج بامرة أبيه المهلّب ، وكان له في تلك الحروب أثر حميد ، لم يبرز المؤرخون القُدامى كعادتهم في توجيه كل الضوء على القائد ، وإغفال غيره من الناس إلاّ نادرا . وعلى الرغم من هذا الاغفال ، فان دور يزيد ظاهر واضح ، يدلّ على أنه كان أبرز إخوته في هـذا المجال .

في قتال الهاشِمِيّ

أعلن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثورته على الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة إحدى وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، إذ بايعه الناس على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق وعلى النّصرة له ، ولم يذكروا عبد الملك ابن مروان .

ولكن رجال الأشعث قالوا : إذا خلعنا الحجّـاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبدالملك ، فاجتمعوا إلى ابن الأشعث وأعلنوا خلع عبد الملك وبايعوه(٩٩).

وأقبل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى دخل البصرة ، فبايعه جميع أهلها ؛ قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجّـاج ومَن معه من أهل الشّام . وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعة ابن الأشعث ، أن عُمّال

---

(٩٦) الطبري (٦/٣٠٢) .
(٩٧) وفيات الأعيان (٥/٣٢٦) ، والملحمة : الحرب الشديدة .
(٩٨) الطبري (٦/٣٣٦) وابن الأثير (٤/٤٦٣) .
(٩٩) الطبري (٦/٣٣٨) وابن الأثير (٤/٤٦٤) .

الحجّاج كتبوا إليه : إنّ الخراج قد انكسر ، وإنّ أهل الذمّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ؛ فكتب إلى عامل البصرة وغيرها : إنّ مَنْ كان له أصل من قرية ، فليُخْرَجْ إليها » ، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية ، فجعلوا يبكون وينادون : يامحمّداه ! يامحمّداه ! ولا يدرون أين يذهبون ، وجعل قرّاء البصرة يبكون لما يرون ، فلما قدم ابن الأشعث عُقَيْبَ ذلك بايعوه على حرْب الحجّاج وخَلْعِ عبد الملك (١٠٠) .

وأقبلت سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) ، فاشتد القتال بين الحجّاج وابن الأشعث ، فتخلّى ابن الأشعث عن البصرة وانسحب إلى الكوفة ، فاجتمع مَنْ بقي في البصرة مع عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب الهاشمي ، فقاتل بهم الحجّاج خمس ليالٍ أشدّ قتال رآه الناس ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة (١٠١).

واستمرّت الحرب بين الحجّاج وابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) سجالاً ، واخيراً انتصر الحجّاج على ابن الأشعث (١٠٢) ، فغادر ابن الأشعث العراق إلى سِجِسْتان أولاً والى كَرْمان منسحباً من سجستان ، وأخيراً سار ابن الأشعث مع (رُتبيل) إلى بلاده ، فأنزله وأكرمه وعظّمه (١٠٣) .

وكان كثير من أصحاب ابن الأشعث من الرؤوس والقادة الذين لم

---

(١٠٠) الطبري (٣٤١/٦) وابن الأثير (٤٦٥/٤) .

(١٠١) انظر الطبري (٣٤٣/٦) وابن الأثير (٤٦٧/٤) ، وانظر تفاصيل هذه المعارك في هذه السنة في الطبري (٣٤٢/٦ – ٣٥٠) وابن الأثير (٤٦٧/٤ – ٤٧٢) .

(١٠٢) انظر التفاصيل في الطبري (٣٥٧/٦ – ٣٦٨) وابن الأثير (٤٧٨/٤ – ٤٨٣) .

(١٠٣) انظر التفاصيل في الطبري (٣٦٨/٦ – ٣٦٩) وابن الأثير (٤٨٤/٤ – ٤٨٥) .

يقبلوا أمان الحجّاج ونصبوا له العداوة في كل موطن ؛ قد تبعوا ابن الأشعث فبلغوا سِجِسْتان في نحو ستين ألفاً ونزلوا على (زَرَنْج) يحاصرون مَن بها ، وكتبوا إلى ابن الأشعث يستدعونه ، ويُخبرونه أنهم على قصد خُراسان ليقووا بمن بها من عشائرهم . فأتاهم . وكان يصلي بأصحاب ابن الأشعث قبل قدومه عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ، إلى أن قدم ابن الأشعث . واستولى على مدينة (زَرَنْج) .

فقال : إن بها يزيد بن المهلّب ، وهو رجل شجاع ، ولا يترك لكم سلطانه ، ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشّام ، فيجتمع علينا أهل خُراسان وأهل الشام » ، فقالوا : لو دخلنا خُراسان ، لكان مَنْ يتبعنا أكثر ممّن يقاتلنا .

وسار ابن الأشعث إلى (هَراة) ، فهرب من أصحابه عُبَيْد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشِيّ في ألفين ، فقال لهم عبد الرحمن : « إني كنتُ في مأمن وملجأ ، فجاءتني كتبكم : أَنْ أَقْدِمْ ! فانّ أمرنا واحد ، فعلّنا نقاتل عدوّنا ، فأتيتكم فرأيتم أن أمضي إلى خراسان ، وزعمتم أنكم تجتمعون إليّ . وأنكم لاتتفرّقون . وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتُم ، فاصنعوا ما بدا لكم . أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتُ من عنده » .

وتفرّق منهم طائفة ، وبقي معه طائفة ، وبقي أعظم العسكر مع عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ . فبايعوه .

وسار عبد الرحمن الهاشميّ إلى (هَراة) ، فلقوا بها الرُّقاد الأَزْدِي ، فقتلوه .

وأرسل يزيد بن المهلّب إلى الهاشميّ : « قد كان لك في البلاد متّسع ومَن هو أهوَن مني شوكة . فارتحلْ إلى بلدٍ ليس لي فيه سلطان ، فاني أكره قتالك . وإن أردتَ مالاً أرسلتُ إليك » .

ولكن الهاشمي أعاد الجواب : « إنّا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام . ولكنّا أردنا أن نُريحَ ثمّ نرحل عنك ، وليست بنا إلى المال حاجة » .

وأقبل الهاشميّ على الجباية ، وبلغ ذلك يزيد ، فقال : « مَنْ أراد أن يربح ثمّ يرتحل ، لم يَجْبِ الخراج ، فلك ما جبيتَ وزيادة ، فاخرج عني ، فاني أكره قتالك ! » .

وأبى الهاشميّ إلاّ القتال ، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه ، فعلم يزيد فقال : « جَلَّ الأمر عن العتاب » .

وتقدّم يزيد بجيشه ، فقاتل الهاشميّ ورجاله ، فلم يكن بينهم كثير قتال ، حتى تفرّق أصحاب عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ عنه ، وصبر وصبرت معه طائفة ، ثم انهزموا .

وأمر يزيد أصحابه بالكفّ عن مطاردة المنهزمين ، وأخذوا ما كان في معسكرهم ، وأسروا منهم أسرى .

ولحق الهاشميّ بالسِّند ، فانصرف يزيد إلى (مَرْو) مقرّه في خُراسان ، وبعث الأسرى إلى الحجّاج عدا مَنْ كان منهم من الأَزْد قبيلة يزيد كعبد الله بن فَضَالة الزّهْرانيّ الأزديّ ، وعدا مَنْ كانت له عليه أو على أهله يَدٌ ، كعبد الرحمن بن طلحة بن خلف الخُزاعيّ ، فأطلقهم وأرسل الباقين من الأسرى إلى الحجّاج الذي قتلهم بسيفه بعد أن قتلهم بلسانه تأنيباً وتقريعاً وهم على قيد الحياة (١٠٤) .

ولئن أحسن يزيد في نصح الهاشميّ وإنذاره والصبر على انحرافه ، ولم يقاتله إلاّ مكرهاً وبعد أن تصرّمت محاولاته السلميّة كلّها ولم يبق غير القتال حلاً ، إلاّ أنه أساء في إطلاق سراح أبناء قبيلته وذوي المعروف عليه من الأسرى ، وأرسل الباقين إلى الحجّاج ليلاقوا حتفهم ، وكان ينبغي أن يعفوَ عن جميع الأسرى أو يعاقبهم جميعاً ، لأنّ ذنبهم واحدٌ وجريمتهم واحدة.

(١٠٤) انظر التفاصيل في الطبري (٣٦٩/٦ – ٣٨٠) وابن الأثير (٤٨٤/٤ – ٤٨٧) وابن خلدون (١١٢/٣ – ١١٤) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢٨٣/١) و (٢٨٤/١) ، وهو غير عبدالله بن عامر القائد الفاتح .

وإحسانه بالنسبة للهاشمي ، يدلّ على تقديره العميق لآل البيت وكراهيته قتالهم ؛ وإساءته في تصرفه بالأسرى ، يدلّ على التزامه بالنزعة القبلية ، وهي دعوة من دعاوى الجاهليّة التي حاربها الاسلام حرباً لا هوادة فيها وحرّمها على المسلمين تحريماً .

وقد أثّر إحسانه وإساءته في مصيره أميراً على خراسان ، ولئن سكت المؤرخون عن إحسانه سبباً من أسباب غضب الحجّاج عليه والتشبث بعزله ، فانهم لم يسكتوا عن إساءته سبباً من أسباب غضب الحجاج عليه .

فقد أُتي بعبد الله بن عامر أحد الأسرى لينال عقابه ، فلما قام بين يدي الحجّاج قال : لارأتْ عيناك الجنّة إن أقلْتَ ابنَ المهلّب بما صنع » ، قال : « وما صنع ؟ » . قال :

« لأنه كاسَ في إطلاق أسْرَتِه
وقادَ نحوكَ في أغلالها مُضَرا
وَقَى بقومِكَ وِرْدَ الموتِ أسْرَتَه
وكان قومُك أدنى عنده خَطَرا »

فأطرق الحجّاج مَلِيّاً ووَقَرتْ في قلبه ، وقال : « ما أنتَ وذاك ؟ ! اضرِبعنقَه . فضُربت عنقُه ، ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عزَلَ يزيد عن خُراسان وحبسه (١٠٥) .

بقي عليّ أن أذكر بأن ابن الأشعث هاب يزيد . فلم يحاول جدّياً أن يجدّد ثورته في خُراسان بعد أن انهارت في العراق . مما يدلّ على نجاح يزيد والياً نجاحاً جعل خصوم الدولة بوجوده يحسبون لها ألف حساب

(١٠٥) الطبري (٣٨٠/٦) وابن الأثير (٤٨٨/٤) .

٣ - في رحلة الموت

أ - الانفلاق :

في سنة مئة الهجرية (٧١٧ م) ، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عَـدِيّ بن أَرْطَـاة والي البصرة لعمر ، يامره بأنفاذ يزيد بن المهلّب موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِـل إليه ، فاستخلف ابنه مَخْلَـداً وقدم من (خُراسان) ونزل (واسِطاً) (١٠٦) ثمّ ركب السُّفُن يريد البصرةَ ، فبعث عَـدِي بن أَرْطَاة موسى بن الوجيه الحِمْيَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِـل) (١٠٧) عند الجسر ، فأوثقـه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق .

وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أُحبّ مثلَهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنّـه مُراءٍ » فلما وليَ عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء وأنّ باطنه خير من ظاهره .

ودعا عمرُ يزيدَ ، فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : « كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيتَ ، وإنما كتبتُ

---

(١٠٦) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ ، وسمِّيت : واسطاً ، لانها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٨/٨ - ٣٨٧) ، وقد أُطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة (الكوت) على نهر دجلة .

(١٠٧) نهر معقل : منسوب الى مَعْقِل بن يَسَار المُزَنِيّ ، من أصحاب النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٤٥/٨ - ٣٤٦) ، وفيه : انّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، امر ابا موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن يحفر نهراً بالبصرة ، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب اليه .

ولا يزال النهر موجوداً في البصرة حتى اليوم ، وعليه ضاحية المعقل احدى ضواحي البصرة ، تقع شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون في الشتاء بخاصة ، وفيها مناظر خلابة جداً ، وجوّها معتدل شتاءً .

إلى سليمان لأُسمعَ الناس به ، وقد علمتُ أن سليمان لم يكن ليأخذني به ! » ، فقال عمر : « لا أجدُ في أمرك إلاّ حبسك ، فاتّقِ الله وأدِّ ما قِبلَك فانها حقوق المسلمين ولا يَسَعُني تركُها » .

وحبس عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ في حصن (حَلَب) ، وبعث إلى الجراح ابن عبد الله الحَكَمِيّ فسرّحه إلى خُراسان أميراً عليها .

وأقبل مَخْلَد بن يزيد من خُراسان يعطي الناسَ ، ففرّقَ أموالاً عظيمة ، ثمّ قَدِم على عمر ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ! إنّ الله صنع لهذه الأُمة بولايتك ، وقد ابتُلينا بك ، فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علامَ تحبِسُ هذا الشّيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فصَالحْني على ما تَسْأل » (١٠٨) . وقيل : إنّ مَخْلَداً قال لعمر : « قد وسِعَ الناسَ عفوُك ، فما بالك حبست هذا الشيخ ؟ فان تكن عليه بيِّنة عادلة فاحكم عليه ، وإلاّ فيمينه أو فصالحه على ضياعه » ، فلما سمع يزيد وهو في سجنه بقول ابنه لعمر : « وإلاّ فيمينه » . قال : أما اليمين ، فلا تتحدّث العرب أنّ ابن المهلّب صبر عليها . ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطاب ! » (١٠٩).

وقال مَخْلَد لعمر رضي الله عنه : « يا أمير المؤمنين ! إن كانت له بيّنة فخُذْ بها . وإلاّ فصدِّق مقالة يزيد واستحلفه ، فان لم يفعل فصالحه » ، فقال عمر : « ما آخذه إلاّ بجميع المال » .

وخرجَ مَخْلَد من عند عمر . فقال عمر : « هذا خير من أبيه » ،

---

(١٠٨) انظر التفاصيل في الطبري (٥٥٦/٦ – ٥٥٧) وابن الأثير (٤٨/٥ – ٤٩) . وانظر البدء والتاريخ (٤٦/٦ – ٤٧) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٥/١) و (٣٢٨/١ وابن خلدون (١٦٢/٣ – ١٦٦) ووفيات الأعيان (٣٢٢/٥ – ٣٢٣) و (٣٤٣/٥ – ٣٤٤) .

(١٠٩) وفيات الأعيان (٣٢٨/٥ – ٣٢٩) .

فلم يلبث مَخْلَد إلاّ مات وهو ابن سبع وعشرين سنة ، فقال عمر : « لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً يريد يزيد بن المهلّب - لأبقى له هذا الفتى » ، ويقال : إنّ مَخْلَد بن يزيد أصابه الطّاعون ، فمات . وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ثم قال : « اليوم مات فتى العرب » ، وأنشد متمثلاً :

على مِثْل عَمْرو تذهب النَّفس حسرةً
وتَضْحي وجوهُ القوم مُغْبَرَّةً سودا

وأنشد عمر :

بكوا حُذَيْفَةَ لم يبكوّا مثلَهُ
حتى تبيدَ خلائق لم تُخْلَقِ

ولما أبى يزيد أن يؤدي إلى عمر شيئاً ، ألبسهُ جُبّة صوف ، وحمله على جَمَل ، وقال : « سيروا به إلى (دَهْلَك) (١١٠) » ، فلما خرج ومرّوا به على الناس أخذ يقول : « أما لي عشيرة ؟ ! إنما يذهب إلى دَهْلَك الفاسق واللّص ! » ، فدخل سلامة بن نُعَيْم الخَوْلانيّ على عمر فقال : « يا أمير المؤمنين ! اردد يزيد الى محبسه . فاني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه

(١١٠) دهلك : جزيرة في بحر عَيْذاب بالقرب من سواكن ، كان الخلفاء يحبسون بها مَن نقموا عليه ، انظر وفيات الأعيان (٥/٤٤٢) وعيذاب : بليدة على ضفة بحر القلزم ، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد ، انظر معجم البلدان (٦/٢٤٦) ، وسواكن : بلد مشهور على ساحل بحر القلزم ، ترفأ اليها سفن الذين يقدمون من جُدّة ، واهلها سود ، انظر معجم البلدان (٥/١٦٥ - ١٦٦) ، وبحر القلزم ، هو البحر الاحمر ، والقلزم هي مدينة السويس ، ويسمى هذا البحر قديماً في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٦٩ - ٧٠) .

قومُه ، فانهم قد عصبوا له » ، فردّه عمر إلى محبسه في حلب . فبقي فيه حتى بلغه مرض عمر (١١١) .

ب ـ الانعتاق :

واشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز ، فعمل يزيد في الهرب من السِّجن ، وخاف يزيد بن عبد الملك الذي يتولى الخلافة بعد عمر ، لأنه عذّب أصهاره آل أبي عَقِيْل ، وهم قوم الحجّاج بن يوسف الثّقَفِيّ ، وكانت أمّ الحجّاج بنت محمد بن يوسف الثّقَفِيّ ، وهي ابنة أخي الحجّاج بن يوسف الثّقَفِي ، زوجة يزيد بن عبد الملك .

وكان سبب تعذيبهم ، أنّ سليمان بن عبد الملك لما وليَ الخلافة ، طلب آل أبي عَقِيل . فأخذهم وسلّمهم إلى يزيد بن المهلّب ليخلِّص أموالهم ، فعذّبهم ، وكان الحجّاج قد وافق الوليد بن عبد الملك على إقالة سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد . فحقد سليمان على الحجّاج ، فلما تولى الخلافة انتقم من آل أبي عَقِيل قوم الحجّاج .

وبعث ابن المهلّب إلى (البَلْقَاء) (١١٢) من اعمال دمشق ، وبها خزائن الحجّاج بن يوسف وعياله . فنقلهم وما معهم إليه ، وكان فيمن أُتي به أم الحجّاج زوجة يزيد بن عبد الملك ، وقيل : بل أخت لها ، فعذّبها ، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلّب في منزله ، فشفع فيها ، فلم يشفِّعْه ، فقال : « الذي قرّرتم عليها ، أنا أحمله » . فلم يقبل منه ، فقال لابن المهلّب :

---

(١١١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٥٥/٦ ـ ٢٥٦) وابن الاثير (٤٩/٥ ـ ٥٠) وانظر وفيات الأعيان (٣٢٨/٥ ـ ٣٢٩) و (٣٤٢/٥) .

(١١٢) البلقاء : كورة من اعمال دمشق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٢ ـ ٢٧٧) .

« أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئاً ، لأقطعنّ منك عضواً ! » ، فقال ابن المهلّب : « وأنا والله لئن كان ذلك ، لأَرْميَنَّكَ بمئة ألف » ، فحمل يزيد بن عبد الملك ما كان على أمّ الحجّاج ، وكان ما عليها مئة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك .

فلما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، خاف يزيدُ بن المهلّب من يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى مواليه ، فأعدّوا له إبلاً وخيلاً ، وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وأرسل مالاً إلى والي حلَب والى الحرس الذين يحفظونه وقال : إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن وليَ يزيد ابن عبد الملك يسفك دمي » ، فأخرجوه من السجن ، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه ، فركب الدّواب وقصد البصرة .

وكتب ابن المهلّب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه : « إني والله لو وثقتُ بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكني خفتُ أن يليَ يزيد فيقتلني شرّ قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللّهمّ إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقْهُ به وهِضْه (١١٣) فقد هاضني » .

ومرّ يزيد بن المهلّب بطريقه إلى البصرة بالهذَيل بن زُفَر بن الحارث ، وكان يخافه ، فلم يشعر الهذيل إلا وقد دخل يزيد منزله ، ودعا بلبن فشربه ، فاستحيا منه الهذيل ، وعرض عليه خيله وغيرها ، فلم يأخذ منها شيئاً . وكان هروب يزيد من سجنه سنه إحدى ومئة الهجرية (١١٤) (٧١٩ م) .

ج ــ الانطلاق :

ولما مات عمر بن عبد العزيز وبويع يزيد بن عبد الملك ، كتب إلى عبد

---

(١١٣) هاض الشيء : كسره .

(١١٤) انظر التفاصيل في الطبري (٥٦٤/٦ ــ ٥٦٥) وابن الأثير (٥٧/٥ ــ ٥٨) وابن خلدون (١٦٦/٣) .

الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة ، وإلى عَدِيّ ابن أَرْطَاة عامله على البصرة ، يأمرهما بالتحرّز من يزيد بن المهلّب ويعرّفهما هربه ، وأمر عَدِيّاً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب ، فأخذهم وحبسهم ، فيهم : المفُضَّل ، وحَبيب ، ومروان بنو المهلّب .

وأقبل يزيد بن المهلّب ، حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة) (١١٥) ، وبعث عبد الحميد بن عبد الرحمن جنداً إليهم عليهم هُشام بن مُسَاحق العامِريّ ، عامر بني لؤيّ ، فسار باتّجاه ابن المهلّب على عجل وبسرعة ، يريدون عرقلة مسيرته إلى الكوفة أو إلى البصرة ، ويبدو أنهم كانوا يحاولون عرقلة مسيرته إلى الكوفة أولاً وقبل كلّ شيء ، حتى نزلوا (العُذَيْب) (١١٦).

ومرّ يزيد بن المهلّب قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه ، لأنّه كان يريد البصرة لا الكوفة ، ومضى يزيد نحو البصرة ، وقد جمع عَدِيّ بن أَرْطَاة أهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المِغيْرَة بن عبد الله ابن أبي عَقِيْل الثَّقَفِيّ .

وأقبل يزيد في أصحابه الذين معه ، فالتقاه أخوه محمد بن المهلّب فيمن اجتمع إليه من أهله وقومه ومواليه .

وبعث عَدِيّ على كلّ خمس من أخماس البصرة رجلاً ، فبعث على الأَزْد المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، وبعث على تميم مُحْرِز بن حُمْرَان السَّعْدِيّ ، وعلى خمس بكر مُفرّج بن شَيْبان بن مالك بن مِسْمَع ،

(١١٥) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر معجم البلدان (٧/٢٥) .

(١١٦) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية اربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٣١) ، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٠٦).

وعلى عبد القيس مالك بن المنذر بن الجارود ، وعلى أهل العالية عبد الأعلى ابن عبد الله بن عامر ، وأهل العالية قُرَيش ، وكِنانة ، والأَزْد ، وبَجِيلة ، وخَثْعَم ، وقَيْس عَيْلان كلّها ، ومُزَيْنة ، وأهل العالية والكوفة يقال لهم : رُبْع أهل المدينة .

وتقدم يزيد ، لايمرّ بخيلٍ من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحّوا له عن طريقه ، وأقبل حتى نزل داره ، فاختلف الناس إليه ، فأرسل إلى عَدِيَّ بن أرطاة أمير البصرة ، إن : « ابعثْ إليَّ إخوتي أصالحك على البصرة وأخليّك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد بن عبد الملك ما أحب » ، فلم يقبل منه .

وسار حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله .

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي مَنْ أتاه قِطَعَ الذّهب والفضّة ، فمال الناس إليه . وكان عَدِيّ بن أَرْطاة لا يُعْطِي إلاّ دِرْهَمَيْن درهميْن ويقول : « لا يحلّ لي أن أَعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمرُ ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أَظُنُّ رجالَ الدِّرهمَيْن تقودُهم ... إلى الموتِ آجالٌ لهم ومَصَارِعُ

وأكيَسُهم مَنْ قَرَّ في قَعرْ داره ... وأيقَنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقِعُ

وخرجت بنو عمرو بن تَميم من أصحاب عَدِيّ بن أَرْطَاة ، فنزلوا (المِرْبَد) (١١٧) ، وبعث يزيد بن المهلّب مولىً له ، يقال له : دارس ، فحمل عليهم فهزمهم .

(١١٧) المربد : مربد البصرة من أشهر محالها ، وكان يكون فيه سوق الابل قديماً ، ثمّ صار محلّة كبيرة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات

وخرج يزيد حين اجتمع الناس له ، حتى نزل (جَبّانة بني يَشْكُر) ، وهي النصف فيما بينه وبين قصر الامارة في البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هُنَيْهَةً ، فحمل عليهم أصحاب يزيد ، فانهزموا .

وتبعهم ابن المهلّب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عَدِيّ بن أَرْطاة بنفسه ، فقُتل من أصحابه موسى بن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ والحارث بن المُصَرَّف الأَوْدِيّ وكان من فرسان الحجّاج وأشراف أهل الشّام .

وانهزم أصحاب عَدِيّ ، وسمع إخوة يزيد ، وهم في محبس عَدِيّ ، الأصوات تدنو والنُّشّاب تقع في القصر ، فقال لهم عبد الملك بن المهلّب : « إني أرى أنّ يزيد قد ظهر ، ولا آمن مَنْ مع عَدِيّ من مُضَر وأهل الشّام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل إلينا يزيد ، فأغلقوا الباب ثمّ القوا عليه ثياباً » . ففعلوا . . . . ولم يلبثوا إلاّ ساعة حتى جاءهم عبد الله بن دينار مولى ابن عامر ، وكان على حَرَس عَدِيّ ، فجاء يشتدّ إلى الباب هو وأصحابه ، وقد وضع بنو المهلّب متاعاً على الباب ، ثمّ اتكوا عليه ، فأخذ الآخرون يعالجون الباب ، فلم يقدروا عليه ، وأعجلهم الناسُ فخلّوا عنهم .

وكان سَلْم بن زياد بن أبي سفيان له دار إلى جانب القصر ، فجاء يزيد حتى نزل تلك الدار وأتى بالسّلالم وفتحَ القصرَ ، فأُتي بعديّ بن أَرْطاة فحبسه وقال له : « لولا حبسُك إخوتي لما حبستُك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس ومالك بن المُنْذر فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشّام .

وخرج المغيرة بن زياد العَتَكِيّ نحو الشّام ، فلقي خالداً القَسْرِي

الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١/٨ - ١٣) .

وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيد بن عبد الملك بن المهلب : قد اقبلوا بأمان يزيد بن المهلب ، وكل شيء ارادوه فسألاه عن الخبر ، فخلا بهما سرّاً من حُمَيْد واخبرهما وقال : « أين تريدان ؟ » ، فأخبره بأمان يزيد ، فقال : « إنّ يزيد قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى وحبس عُدَيّاً ، فأرجعا » ، فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما ، فقال لهما حُمَيْد : « أنشدكما الله أن تخالفا ما بُعثتما به ، فانّ ابن المهلّب قابل منكما ، وإنّ هذا وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء ، فلا تسمعا مقالته » ، فلم يقبلا قوله ، ورجعا به إلى دمشق .

وأخذ عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة خالدَ بن يزيد بن المهلّب وحمالَ بن زَحْر ، ولم يكونا في شيءٍ من الأمر ، فأوثقهما وسيّرهما إلى الشّام ، فحبسهما يزيد بن عبد الملك ، فلم يفارقا السِّجنَ حتى هلكا فيه .

وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من الأموال وُزِّعت على أهلها ويمنّيهم الزيادة ، وجهّز أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشّام والجزيرة (جزيرة ابن عمر) ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق وقدِما الكوفة ونزلا (النُخَيْلَة) (١١٨) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب وصول مَسْلَمة وأهل الشّام راعهم ذلكَ فبلغ خوفهم ابن المهلّب ، فخطب الناس وقال : « قد رأيت أهل العسكر وخوفهم ، يقولون : جاء أهل الشّام ومَسْلَمةُ ! وما أهل الشّام ؟ ! هل هم إلاّ تسعة أسياف ، سبعة منها إليّ ، وسيفان عليّ ؟ وما مَسْلَمة إلاّ جرادة صفراء ، أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاّحين وأوباش وأخلاط ! ؟ أوَ لَيْسُوا بشراً يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ! ؟ أعيروني سواعدكم تصفّقون بها وجوههم وقد ولّوا الأدبار » .

---

(١١٨) النَخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٨ ــ ٢٧٧) .

ولما سيطر يزيد على البصرة ، بعث عمّاله على الأهواز وفارس وكَرْمان ، وبعث على خُراسان مُدْرِك بن المهلّب وعليها عبد الرحمن بن نُعَيْم ، فقال لأهلها : « هذا مُدْرِك ابن المهلّب قد أتاكم ليُلْقي بينكم الحرب وأنتم في بلاد عافية وطاعة » ، فسار بنو تَميم ليمنعوه ، وبلغ الأَزْد بخراسان ذلك ، فخرج منهم نحو ألفَيْ فارس ، فلقوا مُدْرِكاً على رأس المفازة ، فقالوا له : « إنك أحبّ النّاس إلينا ، وقد خرجَ أخوكَ ، فان يظهر فانما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقّه بذلك ، وإن تكن الأخرى فما لك من أن البلاء راحة ! » فانصرف مدرك عنهم .

ولما استجمع أهل البصرة ليزيد ، خطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم لكتاب الله وسُنة نبيّه ويحثّهم على الجهاد ، ويزعم أنّ جهاد أهل الشّام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم !

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناكَ والياً ومولىً عليك ، فما ينبغي لك ذلك » ، ووثب أصحابه فأخذوا بفمه وأجلسوه .

وخرج الناس من المسجد ، فمرّ الحسن البصريّ بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد وهم يقولون : تدعونا إلى سنّة العُمَرَيْن ! فقال الحسن البصري : « كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين تَرَوْن ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ! فلما غضب نصب قَصَباً ثم وضع عليها خِرَاقاً ، ثم قال : إني قد خالفتهم ، فخالفوهم ! قال هؤلاء : نعم . ثم قال : إني أدعوكم إلى سُنّة العُمَرَين ، وإن من سُنّة العُمَرَيْن أن يوضع في رجله قيد ، ثم رُدّ إلى محبسه » . فقال ناس من أصحابه : لكأنك راضٍ عن أهل الشّام ! فقال : « أنا راضٍ عن أهل الشّام ! قَبّحَهُم الله وبَرّحهم ! أليس هم الذين أحلّوا حرم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،

يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ! قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم ، يحملون الحرائر ذوات الدين ، لايتناهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام ، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها . . . . عليهم لعنة الله وسوء الدار » .

ثمّ إنّ يزيد سار من البصرة واستعمل عليها أخاه مَرْوان بن المهلّب ، وأتى (واسِطاً) ، وقد كان استشار أصحابه حين توجّه نحو (واسِط) ، فقال له أخوه حبيب وغيره : نرى أن تخرج وتنزل بفارس ، فنأخذ بالشّعاب والعِقاب ، وندنو من خُراسان ، ونطاول أهل الشّام ، فانّ أهل الجبال يأتون إليك ، وفي يدك القلاع والحصون . فقال : « ليس هذا برأيي ، تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل ! » ، فقال حبيب : « إنّ الرأي الذي كان ينبغي أن يكون أوّل الأمر قد فات ، قد أمرتُك حيث ظهرتَ على البصرة أن توجّه خيلاً عليها بعض أهلكَ إلى الكوفة ، وإنما فيها عبد الحميد ، مررتَ به في سبعين رجلاً فعجز عنك فهو عن خيلك أعجز . فسبق إليها أهل الشّام ، وأكثر أهلها يرون رأيك ، ولأن تلي عليهم أحبّ إليهم من أن يلي عليهم أهل الشّام ، فلم تطعْني . وأنا أشير الآن برأي : سرِّحْ مع بعض أهلك خيلاً كثيرة من خيلك ، فتأتي الجزيرة (جزيرة ابن عمر) وتبادر إليها ، حتى ينزلوا حصناً من حصونهم ، وتسير في أثرهم ، فاذا أقبل أهل الشّام يريدونك ، لم يَدَعوا جندك بالجزيرة يُقْبِلون إليك ، فيقيمون عليهم فيحبسونهم عنك حتى تأتيهم ، ويأتيك مَنْ بالموصل من قومك ، وينفضَ إليك أهل العراق وأهل الثغور ، وتقاتلهم في أرضٍ رخيصة السِّعر ، وقد جعلتَ العراقَ كلّه وراء ظهرك » فقال يزيد : « أكره أن أقطع جيشي » !

ولما نزل (واسطاً) ، أقام بها أياماً يسيرة ، وخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية (١١٩) .

د ـ الاخفاق :

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧١٩ م) ، فسار يزيد عن واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وجعل عنده بيت المال والخزائن والأُسراء .

وسار يزيد على فم (النِّيْل) (١٢٠) حتى نزل (العَقْر) (١٢١) ، وقدّم أخاه عبد الملك بن المهلّب نحو الكوفة فاستقبله العبّاس بن الوليد بن عبد الملك بـ (سُوْرَا) (١٢٢) ، فاقتتلوا . وحمل أصحاب عبد الملك على أهل الشّام حملة كشفوهم فيها ، ومعهم ناس من تميم وقيس من أهل البصرة ، فنادوا : الله . . . . الله أن تُسْلِمونا ! وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك إلى النهر ، فقال أهل الشّام : لابأسَ عليكم ، إنّ لنا جولة في أول القتال ؛ ثمّ كرّوا عليهم فانكشف أصحاب عبد الملك وانهزموا وعادوا إلى يزيد .

وأقبل مَسْلَمة بن عبد الملك يسير على شاطئ الفرات إلى (الأنبار) (١٢٣) ،

---

(١١٩) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/١٦٦ ـ ١٦٩) ، وانظر خلاصة الذهب المسبوك (٢٦) .

(١٢٠) النيل : بليدة في سواد الكوفة قرب (حِلّة) بني مزْيد ، يخترقها خليج كبير ، يتخلّج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٨/٣٦٠) .

(١٢١) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٦٤ ـ ١٦٥) .

(١٢٢) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٦٨) .

(١٢٣) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٤٠ ـ ٣٤٢) ، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم . وقد أطلق اسم الأنبار على محافظة (الرّمادي) احدى محافظات العراق التي تتاخم سورية شمالاً والأردن غرباً .

وعقد عليها الجسر ، فعبر وسار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور ، فبعث على مَنْ خرج إليه من أهل الكوفة ورُبْع أهل المدينة عبدَ الله بن سفيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزدي ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد النُّعمان بن إبراهيم ابن الأشتر ، وعلى كِنْدة وربيعة محمد بن إسحق بن الأَشْعث ، وعلى تميم وَهمْدان حنظلة بن عَتَّاب بن ورقاء التَّميمي ، وجمعهم جميعاً مع المُفَضَّل بن المهلّب .

وأَحصى ديوانَ ابن المهلّب مئة ألفٍ وعشرين ألفاً ، فقال : « لوَدِدْتُ أنّ لي بهم مَنْ بخُراسان من قومي » ، ثم قام في أصحابه فحرّضهم على القتال فقال : « إنّ هؤلاء القوم لن يَرُدَّهم عن غيِّهم إلاّ الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفيّة على هامهم » ، ثم قال : « : « إنّه قد ذُكر لي أنّ هذه الجرادة الصفراء – يعني مَسْلَمَة بن عبد الملك – وعاقر ناقة ثمود – يعني العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان العبّاس أزرق أحمر ، كانت أمّه روميّة – والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلّمته فأقرّه على نسبه ؛ فبلغني أنه ليس همّهما إلاّ الْتِمَاسي في الأرض ، والله لو جاء أهل الأرض جميعاً وليس إلاّ أنا . ما برحت العَرْصة حتى تكون لي أو لهم » ، فقالوا : نخاف أن تُعَنِّينا كما عَنّانا عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، فقال : « إنّ عبد الرحمن فضحَ الذِّمار ، وفضح حَسَبه ، وهل كان يعدو أجله ! » ، ثم نزل .

وجاءته الجموع الحاشدة تبايعه ، وكان نص البيعة : نبايع على كتاب الله وسنة نبيِّه صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى ألاّ تطأ الجنودُ بلادنا ولابيضتَنا ، ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج .

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة قد عسكر بالنُّخَيْلة ،

وشق المياه ، وجعل مع أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا مع ابن المهلّب وبعثَ بعثاً إلى مَسْلَمَة مع سَبْرَة بن عبد الرحمن بن مخْنَف .

ولكنّ مَسْلَمة عزل عبد الحميد عن الكوفة ، واستعمل عليها محمد ابن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة ، لأنَّ عبد الحميد تردّد في لقاء ابن المهلّب حين قدم هارباً من السجن في طريقه من حلَب إلى البصرة .

وجمع يزيد رؤوس أصحابه فقال : « قد رأيت أن أجمع اثني عشر ألفاً . فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يُبَيِّتوا مَسْلَمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكُف والزُبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلتهم . وأمدّه بالرجال حتى أُصبح ، فاذا أصبحت نهضت إليهم أنا والناس . فنناجزهم . فاني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » .

ولكن السَّمَيْداع اعترض على يزيد قائلاً : « إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم . وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منّا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردّوا علينا مازعموا أنهم قابلوه منّا » .

وأيدّ أبو رؤبة ، وهو رأس طائفة من المرجئة ، ومعه أصحاب له ، فقال : « صَدَقَ ! هكذا ينبغي » .

فقال يزيد : « وَيْحَكُم ! أتصدّقون بني أُميّة أنّهم يعملون بالكتاب والسُنّة ! إنهم يخادعونكُم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه . إني لقيتُ بني مَرْوان . فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَوْراً من هذه الجرادة الصفراء — يعني مَسْلَمة — » . قالوا : لانفعل ذلك حتى يردّوا علينا مازعموا أنهم قابلوه منا ! .

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام ، وكان الحسن البصريّ يثبّطهم . فلما بلغ ذلك مروانَ قام في الناس يأمرهم بالجدّ والاحتشاد ، ثم قال : « بلغني أنّ هذا الشيخ الضال المرائي — ولم

يسمـه - يشبط الناس ، والله لو أنّ جاره نزع من خُصّ داره قصبة لظلّ يرعُف أنفُه ! أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقّنا وأن ننكر مظلمتنا ! أما والله ليَكُفّنّ عن ذكرنا وعن جمعه سُقّاط ((الأبُلّة)(١٢٤) وعلُوج فُرات البصرة - قوماً ليسوا من أنفسنا ، ولا ممّن جرت عليه النّعمة من أحدٍ منّا - أو لأنْحِينّ عليه مِبْرَداً خشناً » . فلما بلغ الحسن البصريّ ذلك قال : « والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه » ، فقال ناس من أصحابه : لو أرادك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : « قد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمر ألاّ يقتل بعضكم بعضا مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ! » ، فبلغ ذلك مَرْوان بن المهلّب ، فاشتدّ على أصحاب الحسن وطلبهم حتى تفرّقوا . ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، ولكنّ مروان كفّ عنه ولم يصبه بأذى .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول للناس : « أيّها النّاس ! الزموا رحالكم ، وكفوا أيْدِيَكم ، واتّقوا اللهَ مولاكم . ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباقٍ ، وليس الله عنهم بما اكتسبوا براضٍ . إنه لم تكن فتنة إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التِّيه والخُيَلاء ، وليس يسلم منها إلاّ المجهول الخفيّ والمعروف التّقيّ ، فمن كان منكم خفيّاً فليزم الحق . وليحبس نفسه عمّا يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه واللهِ بمعرفة الله إياه بالخير شَرفا ، وكفى له بها في الدنيا خَلَفا ؛ وَمَنْ كان منكم معروفاً شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادَةَ الله بذلك ، فواهاً لهذا ! ما أسعدَه

(١٢٤) الأبلّة : بلدة على شاطيء دجلة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة ، وهي أقدم من البصرة ، لأنّ البصرة مُصِّرت في ايام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، وكانت الأبلّة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى وقائد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٨٩-٩٠).

وأرشدَه وأعظم أجره وأهدى سبيله ! فهذا غداً – يعني يوم القيامة – القرير عيناً ، الكريم عند الله مآبا » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلّب ومَسْلمة بن عبد الملك بن مروان ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجُمُعَة لأربع عشرة مضت من صَفَر ، بعث مَسْلَمة إلى الوضاح أن يخرج بالسُّفن حتي يحرق الجسر ، ثمّ بعث من أحرق الجسر .

وخرَج مسلمة فَعَبّأَ جنود أهل الشّام ، ثم قرب من ابن المهلّب ، وجعل ميمنته جبَلَة بن مَخْرَمة الكِنْدِيّ ، وعلى ميسرته الهُذَيل بن زُفَر بن الحارث الكِلابي . وجعل العباس بن الوليد على ميمنته سيف بن هانئ الهمداني ، وعلى ميسرته سُوَيد بن القَعْقَاع التميميّ ، وكان مَسْلَمة على الناس . وخرج يزيد بن المهلّب ، وقد جعل على ميمنته حبيب ابن المهلّب ، وعلى ميسرته المُفَضّل بن المهلّب . وبرز رجل من أهل الشّام ؛ فدعا إلى المبارزة . فبرز إليه محمد بن المهلّب ، فضربه محمدٌ ، فاتّقاه الرجل بيده وعلى كفّه كفٌ من حديد ، فضربه محمد فقطع الكفّ الحديد ، وأسرع السيّف في كفّه واعتنق فرسه فانهزم .

فلما دنا الوضّاح من الجسر ، ألهب فيه النار ، فسطع دخانه ، وقد اقتتل الناس ونشبت الحرب ، ولم يشتدّ القتال . ولما رأى الناس الدخان ، وقيل لهم : أُحرق الجسر . انهزم أصحاب ابن المهلّب ، فقيل لابن المهلّب : انهزم الناس . فقال : « ميمّ انهزموا ؟ هل كان قتال يُنْهزم من مثله ؟! » ، فقيل له : قالوا أُحرِقَ الجسر ، فلم يثبت أحد ! فقال : « قبحّهم الله ، بَقٌ دُخّن عليه فطار » .

وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه ، فقال :

« اضربوا وجوه مَنْ ينهزم » ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه ، واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : « دعوهم ، فوالله إني لأرجو ألاّ يجمعني الله وإياهم في مكان واحد أبدا ، دعوهم يرحمهم الله ، غَنَم عدا في نواحيها الذّئب ! » .

وكان يزيد لا يحدّث نفسه بالفرار ، وقد كان يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثَقفي . وهو ابن أخي عثمان بن أبي العاص (١٢٥) صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وليس بينه وبين الحَكَم بن أبي العاص والدِ مَرْوان نسب ، وأمّه ابنة الزَبْرِقَان السَّعْدِيّ ، أتاه وهو بواسِط قبل أن يصل إلى العَقْر ، فقال :

إن بني مَرْوان قد بادَ ملكُهم
فان كنتَ لم تَشْعُرْ بذلك فاشْعرِ

قال يزيد : « ما شعرتُ ! » ، فقال يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثَقفيّ :

فَعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريماً ، وإن تَمُتْ
وسَيْفُكَ مَشْهورٌ بِكَفِّكَ تُعْذَرِ

قال يزيد : « أما هذا ، فعسى » .

ولما خرج يزيد إلى أصحابه ، واستقبلته الهزيمة ، قال : « ياسَمَيْدَع ! أرأيي أم رأيُك ؟ ألم أُعْلِمْكَ ما يريد القوم ! » بلى والله ، والرأيَ ما كان رأيُك ، وأنا ذا معك لا أُزايلُكَ فمرْني بأمرك » .

ونزل يزيد ونزل سَمَيْدَع في أصحابهما ، وكان يزيد على فرسٍ أشهب ، فأتاه آتٍ فقال : « إنّ أخاك حبيباً قد قُتِل » ، فقال : « لاخيرفي

(١٢٥) انظر سيرة حياته المفصّلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ ـ ٢٦٩) .

العيش بعده ، قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد ازددتُ لها بغضا . . . . امضوا قُدُما » ، فعلموا أنه قد استقتل ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ويخاف الموت . وبقي معه جماعة حسنة وهو يتقدّم فكلما مرّ بخيلٍ كشفها ، أو جماعه من أهل الشّام عدلوا عنه .

وأقبل نحو مَسْلَمة لا يريد غيره ، فلما دنا منه أدنى مَسْلَمة فرسه ليركب ، فعطفت عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد وقتل السَّمَيْدَع وقتل محمد بن المهلّب .

وكان رجل من كلب يقال له : القَحْل بن عَيَّاش ، فلما نظر إلى يزيد قال : « هذا والله يزيد ! والله لأقتلنّه أو ليقتلني ! فمَنْ يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصلَ إليه ؟ » ، فحمل معه ناس ، فاقتتلوا ساعة ، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القَحْل بآخر رمقه ، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد وأنه هو قاتله وأنّ يزيد قتله .

وأتى برأس يزيد مولى لبني مُرَّة ، فقيل له : أنت قتلته ؟ قال : « لا » ، فلما أتى مَسْلَمة سيّره إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان مع خالد بن الوليد ابن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط .

وقيل : بل قتل يزيد بن المهلّب الهُذَيْل بن زُفَر بن حارث الكلابيّ ، ولم ينزل يأخذ رأسه أنفةً .

ولما قُتل يزيد ، كان المُفَضَّل بن المهلّب يقاتل أهل الشّام وما يدري بقتل يزيد ، وكان كلّما حمل على الناس انكشفوا ، ثمّ يحمل حتى يخالطهم ، وكان معه عامر بن العَمَيْثَل الأَزْدِيّ يضرب بسيفه ويقول :

قد علمتْ أمُّ الصبيّ المولودْ
أني بِنَصْلِ السَّيْفِ غيرُ رِعْدِيد

واقتتلوا ساعة . فانهزمت ربيعة ، فاستقبلهم بالسَّيف يناديهم :

« أيْ معشر ربيعة ! الكَـرَّةَ . . . . الكَـرَّةَ . . . . والله ما كنتم بكُشُفٍ ولا لئام ، ولا هذه لكم بعادة ، فلا يؤتينّ أهل العراق من قِبلكم اليوم . أيْ ربيعة ! فدتكم نفسي ، اصبروا ساعة من النهار » ، فرجعوا إليه يريدون الحَـملة ، فجاءه مَنْ يقول له ما تصنع ههنا ، وقد قُـتـل يزيد وحَبِيبْ ومحمدّ وانهزم الناس منذ أمدٍ طويل ؟

وتفرّق الناس عن المفضّل ، فمضى إلى واسِط ، فما كان من العرب أضرب بسيف ولا أحسن تعبية للحرب ولا أغشى للناس منه .

وقيل : بل أتاه أخوه عبد الملك ، وكره أن يُخْبره بقتل يزيد فيستقتل ، فقال له : « إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط » ، فانحدر المفضّل بمَنْ معه من ولد المهلّب إلى واسِط ، فلما علم بقتل يزيد ، حلف ألاّ يكلّـم عبد الملك أبدا .

وأسر مَسْلمة نحو ثلاثمائة أسير ، فسرّحهم إلى الكوفة فحبسوا بها وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة ابن مُعَيْط والي الكوفة ، يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مَسْلَمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثمّ أقبل مَسْلَـمة حتى نزل (الحِيْـرَة) (١٢٦) .

ولما بلغت هزيمة يزيد مدينة واسِط ، غادرها آل المهلّب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحريّة ، ثم لجـوّا في البحر ، فلما كانوا بحيال (كَرْمَـان) (١٢٧) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب ، وكان المقدّم عليهم المُـفَضّـل بن المهلّب .

---

(١٢٦) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له : النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٢) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكان بكَرْمان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المُفضَّل ، فبعث مسلمة قوّات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأموال والأرواح .

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابِيل) (١٢٨) ، فطاردهم أصحاب مَسْلَمَة إلى هناك ، فتفرّق الناس عن آل المهلّب ، ولكن المهالبة تقدّموا بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، منهم : المُفَضَّل ، وعبد الملك ، وزياد ، ومَرْوان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك .

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب ، سرّ هذا النصر سروراً عظيماً (١٢٩) .

هـ ـ الكارثة :

انتصر مَسْلَمة بن عبد الملك على يزيد بن المهلّب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تُقدّر . لقضائه على يزيد بن المهلّب الذي خلع يزيد بن الملك . وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأُمويين .

ومن الانصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلّب كان قائداً فذّاً وإدارياً حازما . ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب ، لأنه قاد جيشاً لايثق به ولا يعتمد عليه . أفراده أكثرهم مرتزقة ، كلّ همهم كسب المال ،

(١٢٧) كرمان : ولاية مشهورة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) .

(١٢٨) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٧/٧).

(١٢٩) انظر التفاصيل في الطبري (٥٩٠/٦ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٧٧/٥ ـ ٨٩) وابن خلدون (١٦٦/٣ ـ ١٧٢) ، وانظر المسعودي (١٩٩/٣ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠) والتنبيه والاشراف (٣٢٠ ـ ٣٢٢) .

لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته .

ولم يكن يزيد بن المهلّب يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة ، وأدرك في أول المعركة بأنه يقود معركة خاسرة ، ولكنه ثبت كالطود وقاتل عن شرفه وأحسابه ، ولم يرض لنفسه الفرار او الاستسلام ، حتى لاتتحدّث العرب حاضراً ومستقبلاً بأنه فرّ أو استسلم ، والموت عنده أهون من مثل هذا الحدث .

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثره من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين بالدولة ، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين بدولة ، أو بمعنى آخر ، فقد كان جيش مسلمة يقاتل عن حاضر مضمون ومستقبل مضمون هو حاضر دولة قائمة ومستقبلها ، أما جيش يزيد فكان يقاتل عن حاضر غير مضمون ومستقبل غير مضمون ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلّى بارادة القتال فأنتصر ، وكان جيش يزيد لايتحلّى بهذه المزيّة فانهزم .

أما تفاصيل أسباب هزيمة يزيد بن المهلّب في هذه المعركة ، فسيكون لها ذكر مفصل في الحديث عن يزيد قائدا .

لقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبني المهلّب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وأبرز ولاتها ، وهي خسارة جسيمة بلا مراء .

وأدهى من ذلك وأمرّ ، أنّ الاقتتال الذي نشب بين الاخوة ، أدّى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الاسلامي الرئيسة في المشرق الاسلاميّ ، وفي بلاد المشرق الاسلامي كافة قاعدة الفتح الاسلاميّ المتقدّمة ، مما أدىّ إلى انصراف الفاتحين عن الفتح واستعادة الفتح إلى الاقتتال المرير فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم وجهة إلى انفسهم بدلاً من أن تكون موجهة على أعدائهم ، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم ،

فانحسر مدّ الفتح الاسلامي واستعادة الفتح ، وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وخُراسان وكَرمان وسِجِستان وما وراء النهر وسائر المشرق الاسلامي ، وأصبحت تلك القواعد الرئيسة والمتقدِّمة تعجّ بالفتن والاضطربات والفوضى ، .

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيّون ومن ورائهم الفرس للقضاء على الدولة الأمويّة ، وأصبح دعاة بني العبّاس وعلى رأسهم أبو مُسْلِم الخُراسانيّ يسرحون ويمرحون في بلاد المشرق الاسلامي كافة وبخاصة بلاد فارس وخُراسان بحريّة كاملة تحت سمع وبصر ولاة الدولة الأمويّة العاجزين عن اتخاذ إجراءات مؤثِّرة ، لأنّ الخرق اتسع على الرّاقع – كما يقول المثل العربي المشهور .

لذلك كان انتصار مَسْلَمَة على يزيد بن المهلّب في هذا الاقتتال انتصاراً تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سَوْقِيّة (أستراتيجيّة) على المدى القريب والبعيد أيضاً .

والانتصار التعبوي ، لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السّوقيّة كما هو معروف .

(يتبع)

الفهرس

الصفحة

مجلــة
المجمع العلمــي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد



توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

يَزِيدُ بن المهلَّب بن أبي صُفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النهر وشطر خراسان وشطر طبرستان

اللواء الركن محمود شيت خطاب
(عضو المجمع)

(٢)

دوره في الادارة

ا ـ في السلطة :

كان يزيد يحارب تحت لواء أبيه المهلّب الخوارجَ في كَرْمان سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فاستدعى الحجّاجُ المهلّبَ وأمره أن يوليَّ كَرمان مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه .

واستعمل المهلّب على كَرْمان يزيدَ ابنه ؛ ثم سار إلى الحجّاج ، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال : « يا أهل العراق ! أنتم عبيد المهلّب ، ثم قال : أنت « كما قالَ لَقيْط بن يَعْمرَ الاياديّ في صفة أُمراء الجيوش :

وقَلّدوا أمرَكُم للهِ دَرُّكُمُ
رَحبَ الذّراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَا

لامُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيش ساعده
ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعَا

مُسَهَّدُ النّوم تُعْنيه ثغوركُمُ
يرومُ مِنْها إلى الأعداءِ مُطَّلَعا

ما انفكّ يحابُ هذا الدّهرَ اشطرَهُ
يكونُ متّبعاً طوراً ومتّبِعَا

وليس يَشغلُه مالٌ يثمِّرُهُ
عنكم ولا وَلَدٌ يبغي له الرَّفَعَا
حتى استمرَّت على شَزْرٍ مَريرَتُه
مستحكم السنّ لا قَحماً ولا ضَرَعا (١)

ولا نعلم بالضبط كم بقي يزيد على كَرْمان ، ولكن أباه تولى خُراسان سنة ثمان وسبعين الهجريّة (٦٩٧ م) ، فالتحق بأبيه ، وشهد تحت رايته معارك في الفتح .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م) توفي المُغيْرة بن المهلّب الذي كان قد استخلفه أبوه على خُراسان ، فدعا المهلّبُ ابنه يزيد ووجّهَه الى (مَرْو) خلفاً للمغيرة ، وكان يزيد يقاتل مع أبيه في بلاد ما وراء النهر ، فعاد يزيد الى (مَرْو) وكيلاً لأبيه على خراسان (٢) .

ولكنّ المهلّب تُوفي في هذه السنة ، فكتب يزيد إلى الحجّاج يُعلمه بوفاة المهلّب ، فأقرّ الحجّاجُ يزيدَ على خُراسان (٣) .

وبقي يزيد على خُراسان حتى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) حيث عزله الحجّاج وولىّ مكانه أخاه المفضّل بن المهلّب ، بعد أن أمضى على خُراسان أربع سنوات تقريباً ، قضى أكثرها غازياً في الجبال والوديان والسهول والفلوات . ولم يقض إلاّ وقتاً محدوداً في (مَرْو) عاصمة خُراسان .

وقد ذكر المؤرخون عدّة أسباب لعزله . نذكرها مجملةً لنعرف السبب الحقيقي لهذا العزل .

(١) ابن الأثير (٤٤١/٤) .
(٢) ابن الأثير (٤٧٢/٤ ــ ٤٧٣) .
(٣) الطبري (٣٥٥/٦) وابن الاثير (٤٧٦/٤) ، وانظر طبقات ابن سعد (١٣٠/٧)

وكان سبب عزل الحجّاج يزيد بن المهلّب عن خُراسان ، أنّ الحجّاج وفد إلى عبد الملك بن مروان ، فمرّ في طريقه براهب ، فقيل له : إنّ عنده علماً . ودعا الحجّاج بالرّاهب ، وسأله عدّة أسئلة ثم سأله : « أتعلمُ مَنْ يلي بعدي ؟ » ، قال : « نعم ! رجل يقال لـه يزيد » ، فقال : « أفتعرف صفته ؟ » قال : « يغدر غَدْرَةً ، لاأعرف غير هذا ! »

وسار الحجّاج وهو وَجِلٌ من قول الراهب ، فلما عاد كتب إلى عبد الملك يذمّ يزيد وآل المهلّب ، ويخبره أنهم زُبَيْرِيّة (٤) ، فكتب إليه عبد الملك : « إنّي لا أرى طاعتهم لآل الزُّبير نقصاً بآل المهلّب ، ووفاؤهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لـه » .

وعاد الحجّاج ليكتب إلى عبد الملك من جديد ، يخوّفه غدر يزيد وبما قال الرّاهب ، فكتب عبد الملك إليه : « إنّك قد أكثرتَ في يزيد وآل المهلّب ، فسَمِّ لي رجلاً يصلح لخراسان ، فسمّى : قُتَيْبَةَ بن مُسْلِم ، فوافق عبد الملك على تولية قُتَيْبَةَ » . (٥)

وقيل : إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج سأل أحد فرسان المهلّب (٦) ، وكان مع يزيد ؛ فقال له الحجّاج : « أخبره عن يزيد » ، فقال : « حَسَنُ الطّاعة ، ليّن السيرة » ، قال : « كذبْتَ » أصدقني عنه » ، قال : «اللهُ أجَلُّ وأعظم ، قد أسرج ولم يُلْجِم » ، يريد أنه أكمل استعداداته للانتقاض على الحجّاج ، قال : « صَدَقْتَ » (٧) .

---

(٤) يريد انهم موالون لآل الزبير بن العوام رضي الله عنه .
(٥) الطبري (٣٩٣/٦ ـ ٣٩٤ / ، وابن الأثير (٥٠٢/٢ ـ ٥٠٣) .
(٦) هو الخيار بن أبي سَبْرَة بن ذؤيب بن عَرْفَجَة بن سفيان بن مجاشع .
(٧) الطبري (٣٩٥/٦) .

وقيل : إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج كتب إلى يزيد : « إغزُ خُوارِزْم » ، فكتب : « إنها قليلة السَّلَب ، شديدة الكَلَب » ، فكتب إليه الحجّاج : « استَخْلِف واقدمْ » ، فكتب يزيد : « إني أريد أن أغزو خُوارزم » ، فكتب الحجّاج : « لا تغزُها فإنها كما ذكرت » ، فغزا يزيد ولم يطعْه ، فصالحه أهلها وأصاب سبياً . وقفل في الشتاء ، وأصاب الناس بردٌ (٨) .

وقيل : إنّ الحجّاج استقدم يزيد من خُراسان إلى العراق ، فتباطأ في العودة ، فكتب الحجّاج إلى أخيه المفضَّل : « إني قد وليتك خُراسان » فجعل المفضّل يستحثّ يزيد ، فقال له يزيد : « إنّ الحجّاج لا يُقرُّك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه ، وستعلم » (٩) .

وقيل : إنّ الحجّاج لم يكن له حين فرَغَ من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث همٌّ إلاّ يزيد بن المهلّب وأهل بيته ، وقد كان الحجّاج أذلّ أهل العراق كلّهم إلاّ يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المِصْرَيْن : البصرة والكوفة – بخراسان ، ولم يكن يتخوّف بعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالعراق غير يزيد بن المهلّب – فأخذ الحجّاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خُراسان ، فكان يبعث إليه ليأتيه ، فيعتلّ عليه بالعدو وحرْب خُراسان (١٠)

وقد ذكرنا أن الحجّاج كان يأخذ على يزيد تحيزه لقومه على حساب قوم الحجّاج ، أي يتحيز للقحطانيين على حساب العدنانيين ، أو أهل اليمن على قيس ، حتى قال عبد الله بن عامر قبيل تنفيذ حكم الاعدام به بوقت قصير : « لا رأت عيناكَ يا حجّاج الجنّة إن أقلْتَ ابن المهلّب بما صَنَع » ، قال : « وما صَنَع ؟ » ، قال :

(٨) الطبري (٣٩٦/٦) وابن الأثير (/٥٠٤ – ٥٠٥) .
(٩) (٣٩٥/٦ وابن الأثير (٥٠٣/٤) .
(١٠) الطبري (٣٩٦/٦ – ٣٩٧) .

لأنه كاسَ في إطلاقِ اسْرَتِـه
وقادَ نَحوَك في أغلالِها مُضَرا
وَقَى بقومِــكَ وردَ الموتِ أُسْرَتَهُ
وكان قومُكَ أدنى عنــدَه نَظَرا

فأطرق الحجّاج مَلِيّاً ووقرت في قلبه ، وقال : « وما أنتَ وذاك ! اضرب عنقه » فضربت عنقَه . ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عزل يزيد عن خُراسان وحَبَسَه (١١) .

تلك هي مجمل الأسباب التي ذكرها المؤرخون في عزل الحجّاج ليزيد : سبب خرافي يرتكز على الرّجم بالغيب الذي هو في علم الله لا في علم البشر ، وخوف الحجّاج من تمرّد يزيد عليه وعلى الدولة يستند على ماحققه يزيد من نجاح إدارياً وقائدا ، وثقة يزيد العالية بنفسه فيرى أنه ند للحجّاج وليس آلة من آلاته يحركها حين يشاء كيف يشاء ، ورغبة الحجّاج في إذلال الناس كافة ويزيد لايمكن أن يذلّ لأحد لماضيه التليد وقابلياته المتميِّزة وإنتاجه الجديد ، وتحيُّز يزيد لقومه ، وليس وحده يتحيز لليمانيين قومه فجميع القادة والأمراء تقريباً يعتمدون على قبائلهم ويتحيزون لها ومنهم الحجّاج الذي يتحيز لمُضرَ كافة ، والتَحيّز للقبيلة دعوة جاهلية حاربها الاسلام ، فخبت حيناً ثم اندلعت بعد حين .

ولم تكن من تلك الأسباب عدم كفاية يزيد أو إخفاقه في مهمته إدارياً وقائدا ، فانَ أعماله في خُراسان مشهودة ، كما كان الناس يحبونه حبّاً جمّاً ، فلما سار إلى الحجّاج مُتَخَلِياً عن ولاية خُراسان ، كان لايمرّ ببلد إلاّ فرش أهله الرياحين (١٢) تكريماً ليزيد وتقديراً لخدماته وإظهاراً لحبه

---

(١١) الطبري (٦/٣٨٠) وابن الأثير (٤/٤٨٨ .
(١٢) الطبري (٦/٣٩٦) وابن الأثير (٤/٥٠٥) .

وتقديرهم له ، في وقت كان فيه قد تخلّى على السلطة أو تخلّت عنه ، والناس أو أكثرهم مع (الواقف) صاحب السلطة لا مع الذي انحسرت عنه الأضواء .

واعتقد أنّ الحجّاج عزل يزيد عن خُرسان لهذه الأسباب مجتمعة ، بما فيها السبب الخرافي ، فقد كان الحجّاج من الرجال الذين يصدّقون مثل هذه الخرافات ، كما كان يصدّقها كثير من أنداده الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده إلى اليوم (١٣) ، وسيبقى غيره من عظماء الأمم يصدقونها غدا .

فقد نزل الحجّاج في حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (دير قُرَّة) (١٤) ، ونزل ابن الأشعث (دير الجَماجِم) (١٥) ، فكان الحجّاج يقول : « أما كان عبد الرحمن يزْجُر الطير حيث رآني نزلتُ (ديرَ قُرَّة) ونزل (دير الجماجم) (١٦) ! !

والأمثلة على تصديق الحجّاج للخرافات كثيرة ، وهو ليس وحده من بين العظماء الذين يصدّقون بالخرافات ، فأمثاله كثير قديماً وحديثاً .

وقد كان الحجّاج من الذين يتَسمون بالمركزيّة المفرطة إلى أبعد الحدود ، فكان يحب أن يأمر فيُطاع سواء كان أمره حقاً أو باطلا ، ولا يقبل أبداً أن يُعصى أمرُه أو يُناقش أو لا يُنفّذ فوراً ، فراجَ في وقته — وبخاصة في أيام السّلام — ، الولاة المتّبِعون ، وانحسر في وقته الولاة المتبوعون ،

(١٣) في مذكرات ونستن تشرشل ، أنه كان في أيام الحرب العالمية الثانية اذا نزل القاهرة ، استدعى احدهم (الاسيوطي) ليسأله عما سيكون في المستقبل ، بالنسبة له شخصيا وبالنسبة لأحداث الحرب !!

(١٤) دير قرة : دير بازاء دير الجماجم ، وهو ملاصق لطرف البر ، ودير الجماجم مما يلي الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٢/٤) .

(١٥) دير الجماجم : دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر السالك الى البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٤ — ١٣٢) .

(١٦) الطبري (٣٤٧/٦) وابن الاثير (٤٦٩/٤) .

وكان يزيد من القادة المبتدعين الذين لهم رأيهم الخاص ومن الذين يستطيعون عند الحاجة أن يقول لمن يعمل بامرتهم « لا ! » .

وكان كلّ ذنب يزيد ، أنه ذو شخصية قويّة نافذة ، وكان رجلاً وكفى ، والحجّاج يفضّل أصحاب الشخصيات الهزيلة وأشباه الرجال ، وكان الخاسر الوحيد في عزل يزيد هي خُراسان ومَن كان يعيش في خُراسان من الناس ، والمصلحة العامة للمسلمين خاصة على كلّ حال !

وقبل أن يغادر يزيد خُراسان ، استشار حُضَيْنَ بن المُنْذِر الرَّقاشِيّ فقال له : « أَقِمْ واعْتَلْ واكتب إلى أمير المؤمنين ليُقِرَّكَ ، فانه حسن الحال فيك » قال : « نحن أهل بيتٍ قد بورك لنا في الطّاعة ، وأنا أكره الخِلاف » .

وقال يزيد لأهل بيته لمّا بلغه عزلُه : « مَنْ تَرَوْنَه الحجّاج يوّلي خُراسان ؟ » ، قالوا : رجلاً من ثَقِيْف . قال : « كلا ، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده ، فاذا قدمت عليه عزله وولّى رجلاً من قَيْس ، وأَخْلِقْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم » (١٧) .

وأخذ يتجهز ، ثم عاد إلى الحجّاج ، فحبسه سنة ست وثمانين الهجرية (١٨) (٧٠٥ م) ، فلم يخسر منصبه الرفيع حسب ، بل دخل السجن ضريبة لكفايته المتميِّزة وشخصيته القوية واعتداده برأيه وصونه لكرامته .

ب . في السِّجن :

قضى يزيد من سنة ست وثمانين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية (٧٠٧م) في سجن الحجّاج .

وحبسه الحجّاج ، لأنّ الناس قد فُتِنوا به ، فخشي الحجّاج أن

(١٧) ابن الأثير (٥٠٣/٤) .
(١٨) الطبري (٤٢٦/٦) وابن الأثير (٥٢٤/٤) .

يقودهم إلى الفتنة ، فيزعزع أركان الحجّاج والدولة .

ولو اقتصر الأمر على خوف الحجّاج من شعبية يزيد الطاغية التي تحفّزه على الثورة ضدّ الدولة ، لاقتصر الحجّاج على حبسه ، ولكن الحجّاج حبس يزيد وعذبه ، وسبب تعذيبه هو مطالبته بأموال المسلمين التي استأثر بها لنفسه وآل بيته وأصحابه وأعوانه ومَنْ يلوذ به دون سائر المسلمين . فقد أغرمه الحجّاج ستة آلاف ألف درهم (١٩) ، فلما لم يدفع غرامته ، أمر الحجّاج بتعذيبه ليؤدي الذي عليه جبراً ، بعد أن امتنع عن أداء الذي عليه مختارا .

وكان يزيد يصبر صبراً حسناً على العذاب ، وكان ذلك مما يغيظ الحجّاج منه (٢٠) ، لذى كان يأخذ يزيد بسوء العذاب . وسأل الحجّاج يوماً أن يخفّف عنه العذاب على أن يدفع له كل يوم مئة الف درهم ، فان أدّاها وإلاّ عذّبه إلى اللّيل . وجمع يوماً مئة ألف درهم يشتري بها عذابه في يومه ، فدخل عليه الأخطل الشاعر ، فقال : (٢١)

أبا خالدٍ بادَتْ خُراسانُ بَعْدَكُمْ
وصاحَ ذوو الحاجات أين يزيد ؟
فلا مَطِرَ المَرْوانِ بَعْدَكَ مطْرَةً
ولا اخْضَرَّ بالمَرْوَين بَعْدَكَ عودُ (٢٢)
فما لسَرِيْرِ المُلْكِ بَعْدَكَ بَهْجَةٌ
ولا لجواد بعد جودك جود

(١٩) الطبري (٦/٤٤٨) وابن الأثير (٤/٥٤٥ ووفيات الأعيان (٥/٣٣٤) .
(٢٠) الطبري (٦/٤٤٨) وابن الأثير (٤/٥٤٥) .
(٢١) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه . والمشهور ان صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، وهذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم ، انظر وفيات الأعيان (٥/٣٢٣) .
(٢٢) المروان والمروين : مرو الروذ ومرو الشاهجان ، تثنية مرو .

فأعطاه يزيد مئة الألف ، فبلغ ذلك الحجّاج ، فدعا به ، وقال : « يامَرْوزى ! (٢٣) أفيك هذا الكرم وأنت بهذه الحالة ؟ ! قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده » (٢٤) .

ودخل على يزيد الفرزدقُ في الحبس فقال :

أصْبَحَ في قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ والجو دُ وحَمْلُ الدِّياتِ والافْضَال

فقال يزيد : « أتمدحني وأنا على هذه الحال ؟ ! » ، قال : « أصبتُكَ رخيصاً فاشتريتك » (٢٥) .

ومضت السّنون عجافاً ثقيلة طويلة الأيام ، حتى جاءت سنة تسعين الهجريّة ، ويزيد وقسم من اخوته في سجن الحجّاج ، يثقلهم القيد ويلهبهم التعذيب .

وخرج الحجّاج إلى (رُسْتَقاباذ) (٢٦) في حملة تأديبية للأكراد الذين غلبوا على إقليم (فارس) ، وخرج معه يزيد وإخوته عبد الملك والمُفضّل في عسكره لامقاتلين بل مسجونين ، ومن الواضح أنّ إخراج أبناء المهلّب المسجونين هو لخوف الحجّاج من فرارهم من السّجن ، فأراد أن يكونوا معه في الحملة ليُشرف على حراستهم شخصياً ويحول دون فرارهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

---

(٢٣) مروزى : نسبة الى مدينة مرو حاضرة خراسان .
(٢٤) وفيات الأعيان (٥/٣٢٣) .
(٢٥) ديوان الفرزدق (٢/٣١٤) والشعر والشعراء (١/٣٥٠) ، وورد البيت في عيون الأخبار (١/٨٢) :
أصبَح في قيدك السماحةُ والجو د وحملٌ لمضلع الأثقال
(٢٦) رستقاباذ : موقع من أرض (دَسْتوا) ، وجاءت في معجم البلدان (٤/٢٤٩) : رُسْتَقباذ ، ودستوا : بلدة بفارس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٥٩ – ٦٠) .

وجعل الحجّاج على يزيد وأخويه كهيئة الخندق ، وجعلهم في فُسطاط قريب منه ، ليشدِّد عليهم رقابته الصّارمة ، وأخذ يعذبهم ويزيد صابراً محتسبا ، فقيل للحجّاج : إنّ يزيد رُمي بساقه بنشابة فثبت نصلُها فيه فهو لايمسّها إلاّ صاح ، فأمر الحجّاج أن يُعذّب في ساقه ، فلما فعلوا به ذلك صاح ، وأختهُ هند بنت المهلّب عند الحجّاج ، فلما سمعت صوته صاحت وناحت ، فطلّقها الحجّاج !!

ثمّ إنّ الحجّاج كفّ عن تعذيب يزيد وإخوته ، وأقبل يستأديهم المال الذي بذمّتهم ، وهم يعملون في التخلّص من سجنهم ، فبعثوا إلى مَرْوان ابن المهلّب وهو بالبَصْرَة ، يأمرونه أن يُضَمِّر لهم الخيل ، ويُري الناسَ أنه إنما يريد بَيْعَها ، ويَعْرِضها على البيع ويُغلي بها لئلا تُشْتَرى ، لتكون عُدَّةً إن هم قدروا على النجاة بأنفسهم من السِّجن ، ففعل ذلك مَرْوان ، وكان حَبِيْب بالبصرة يُعذّب أيضا .

وأمر يزيد أن يُصنع للحرس طعام كثير ، وأمر لهم بشراب ، فأكلوا وسُقوا ، فكانوا متشاغلين به .

ولبس يزيد ثياب طبّاخه ، ووضع على لحيته لحيةً بيضاء ، وخرج فرآه بعض الحرس فقال : « كأنّ هذه مِشْيَة يزيد ! » وجاء الحارس حتى استعرض وجهَه ليلاً . فرأى بياض اللِّحية ، فانصرف عنه قائلا : « هذا شيخ ! » .

وخرج المُفضّل على أثره ، فلم يفطَن له .

وجاءوا إلى سفنهم ، وقد هيّأوها في (البَطائح) (٢٧) ، وبينهم وبين

---

(٢٧) البطائح : أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٥/٢) و (٢٢٢/٢ ـ ٢٢٣) .

البصرة ثمانية عشر فَرْسخاً ، فلما انتهوا إلى السُّفن أبطأ عليهم عبد الملك وشُغِلَ عنهم ، فقال يزيد للمفضَّل : « اركبْ بنا فانه لاحق » ، فقال المفضّل وعبد الملك أخوه لأمه — وهي بَهْلة ، هنديّة : « لا والله ، لا أبرح حتى يجيىء ولو رجعتُ إلى السِّجن » .

وأقام يزيد حتى جاءهم عبد الملك بن المهلّب ، فركبوا عند ذلك السُّفن ، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا . ولما أصبح الحرسُ علموا بهرب يزيد وأخويه ، فرُفع ذلك إلى الحجّاج .

وقال الفرزدقُ في هرب يزيد ومَنْ معه (٢٨) :

فلم أرَ كالرَّهْطِ الذين تَتَابَعوا
على الجِذْع والحراس غيرُ نيامِ
مَضَوا وهُمْ مُسْتَيْقِنون بأنَّهم
إلى قَدَرٍ آجالُهُمْ وحِمَامِ
وإنْ منهمُ (٢٩) إلاّ يُسَكِّن جأشهُ
بِعَضْبٍ صَقيْلٍ صارمٍ وحُسَامِ
فلما التقَوْا لم يلتَقوا بمنفّهٍ (٣٠)
كبيرٍ ولا رَخْص العظام غلامِ
بمثلِ أبيهم حين تمّت لِدَاتُهُمْ
لخمسين قُلْ في جُرْأةٍ وتمامِ .

وفزع الحجّاج فزعاً عظيماً لهرب يزيد وصحبه من سجنه ، وهو الذي بالغ كثيراً في حراستهم ، وذهب وهمه أنهم ذهبوا قِبَل خُراسان ،

---

(٢٨) ديوان الفرزدق (٨١٦ — ٨١٧) .
(٢٩) في ديوان الفرزدق : وما منهم .
(٣٠) منفه : الضعيف من العلّة .

فبعث البريد إلى قُتَيْبَة بن مُسْلِم يحذّره قدومَهم ويأمره أن يستعدّ لهم ، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بهربهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم .

ولما دنا يزيد من (البطائح) من (مَوْقوع) (٣١) استقبلته الخيل قد هُيِّئَتْ له ولاخوته ، فخرجوا عليها ومعهم دليل من بني كَلْب ، فأخذ بهم على (السَّمَاوَة) (٣٢) .

وجاء مَنْ يُخبر الحجّاج بعد يومين من هرب يزيد بأنّه أخذ طريق الشام على طريق السَّمَاوة ، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلِمُه .

ومضى يزيد حتى قدِم فِلَسْطِين ، فنزل على وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِيّ وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك الذي كان يومذاك ولياً للعهد وأنزل بعض ثَقَلَه وأهله على سُفيان بن سليمان الأَزْدِيّ .

وجاء وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِي حتى دخل على سليمان بن عبد الملك ، فقال : « هذا يزيد بن المهلّب وإخوته في منزلي ، وقد أتوك هُرّاباً من الحجّاج مُتَعَوِّذين بك » . قال : « فائتني بهم ، فهم آمِنون لا يُوصَل إليهم أبداً وأنا حيّ ! » فجاء بهم حتى أدخلَهم عليه ، فكانوا في مكان آمن .

وكتب الحجّاج إلى الوليد بن عبد الملك : « إنّ آل المهلّب خانوا أمان الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان » .

وكان الوليد قد حذرهم وظنّ أنهم يأتون خُراسان للفتنة بها ، فلما علم أنهم عند أخيه سليمان سكنَ بعض ما به وطار غضباً للمال الذي ذَهَبوا به . وكتب سليمان إلى الوليد : « إن يزيد بن المهلّب عندي وقد آمنته ، وإنما

---

(٣١) موقوع : ماء بناحية البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٠٠) .

(٣٢) السَّمَاوة : ماء بالبادية ، وبادية السماوة هي البادية التي بين الكوفة والشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٢٠) .

عليه ثلاثة آلاف ألف ، كان الحجّاج أغْرَمَهم ستة آلاف ألف ، فأدَّوْا ثلاثة آلاف ألف ، وبقي ثلاثة آلاف ألف ، منهن عليّ » .

فكتب الوليد إلى سليمان : « لا والله ، لا أؤمِّنه حتى تبعث به إليّ » ، فكتب إليه : « لئن أنا بعثتُ به إليك لأجيئنّ معه ، فأنشدُك اللهَ أن تفضحني ولا أن تُخفِرني » ، فكتب اليه : « والله لئن جئتَني لا أؤمِّنه » .

وقال يزيد حين رأى تصاعد حدّة الرسائل والخلاف بين الوليد وسليمان : « ارسلْني إليه فوالله ما أُحبُّ أن أُوقع بينه وبينك عداوةً ولا أن يتشاءم الناس بي لكما ، واكتب بألطف ما قدرتَ عليه » .

وكتب سليمان إلى الوليد : « لعبد الله الوليد أمير المؤمنين ، من سليمان ابن عبد الملك ، أما بعْدُ يا أميرَ المؤمنين ! فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدوٌّ قد نابذَكَ وجاهدَكَ فأنزلتهُ وأجرْتهُ أنك لاتُذلّ جاري ، ولا تُخْفِر جواري ، بَلْه لم أجِرْ إلاّ سامعاً مطيعاً حسَنَ البلاء والاثر في الاسلام هو وأبوه وأهل بيته ؛ وقد بعثت به إليك ، فان كنتَ إنما تغْزو قطيعَتي والاخفار لذمّتي ، والابلاغ في مساءتي ، فقد قدرتَ إن أنتَ فعلت . أعيذُك بالله من احتراد (٣٣) قطيعَتي ، وانتهاكِ حُرْمتي وتركِ برّي وصِلَتي ، فوالله يا أميرَ المؤمنين ما تَدْري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفَرِّق الموتُ بيني وبينَك ! فان استطاع أميرُ المؤمنين أدام اللهُ سرورَه ألاّ يأتي علينا أجل الوفاة الاّ وهو لي وصل ، ولحقّي مُؤدٍ ، وعن مساءتي نازع . فليَفعَلْ ! والله يا أميرَ المؤمنين ، ما أصبحتُ بشيءٍ من أمر الدنيا بعد تَقْوَى الله فيها بأسَرَّ مني برضاك وسرورك ، وإنَّ رضاكَ مما ألتمسُ به رضوانَ الله ، فانْ كنتَ يا أميرَ المؤمنين تريد يوماً من الدّهر مَسرّتي

(٣٣) الاحتراد : من الحرد ، وهو القصد ، وفي وفيات الأعيان (٥/٣٣٦) : اختيار .

وصِلَتي وكَرامَتي وإعظامَ حقّي فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلَبْته به فهو عليّ » .

وأرسل سليمانُ يزيدَ إلى الوليد ، وأرسل معه ابنَه أيوّب ، وكان الوليد قد أمره أن يبعث به مُقَيَّدا ، فقال سليمان لابنه : « إذا دخلتَ على أمير المؤمنين ، فادخلْ أنت ويزيد في سلسلة » ، ففعل ذلك .

ولما رأى الوليد ابنَ أخيه في سلسلة قال : « لقد بلغنا من سليمان » .

ودفع أيوّب كتاب أبيه إلى عمّه وقال له : « يا أمير المؤمنين ! نفسي فداؤك ، لا تُخْفر ذِمّة أبي ، وأنت أحقّ مَنْ مَنَعَها ، ولا تقطع منا رجاءَ مَن رجا السَّلامة في جوارنا لمكاننا منكَ ، ولا تُذِلّ مَنْ رجا العزّ في الانقطاع إلينا لعزنا بك » .

فلما قرأ الوليد كتاب سلمان قال : « شققنا على سليمان » .

وتكلم يزيد ، فحَمِد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيِّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ بلاءكم عندنا أحسنُ البَلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فلَسنا ناسيه ، ومَنْ يَكفُر فلَسنا كافريه . وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطّعن في أعين أعدائكم في المواطِن العظام في المَشَارق والمغارب ما إنّ المِنَّة علينا فيها عظيمة » . فقال الوليد ليزيد : « اجْلس . . . فجلس . فآمَنَه . فرجع يزيد إلى سليمان .

وكتب الوليد إلى الحجّاج : « إني لم أصِل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفُفْ عنهم » فكفّ الحجّاج عنهم .

وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلّب عند الحجّاج عليه ألف ألف ، فتركها وكفّ عن حبيب بن المهلّب .

وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان يهدي له الهدايا ويصنع له الأطعمة ، وكان لا يأتي يزيد هديّةٌ إلا بعث بها إلى سليمان . ولا يأتي سليمانَ هديّةٌ إلاّ

بعث بنصفها إلى يزيد ، وكان لا تعجبه جارية إلاّ بعث بها إلى يزيد (٣٤) .

إن قصة هرب يزيد وإخوته من سجن الحجّاج ، ملحمة من الملاحم التي إن دلّت على شيءٍ ، فانما تدلّ على شجاعته الفائقة وتغلغل روح المغامرة فيه ، إذ ليس من السهل على أي إنسان أن يهرب من سجن الحجّاج ، لأنّ عقوبته التي لايتردّد الحجّاج في تنفيذها لحظة واحدة هي الاعدام ، فكيف إذا كان هذا الانسان يزيد بن المهلّب الذي يخافه الحجّاج ويحاذر انتقاضه ، مما جعل الحجّاج يبالغ أشدّ المبالغة في تشديد الحراسة على يزيد في سجنه واختيار الحرّاس الموثوق بهم لحراسته ، ونقل يزيد من سجنه إلى حيث يسير الحجّاج في السِّلم والحرب ليبقى تحت إشرافه المباشر ، ومع كلٍّ هذه الحيطة وهذا الحذر . هرب يزيد غير مكترث بالعواقب ولا هيّاب لنتائج الهرب ، مع علمه بعواقب عمله ونتائجه دون شك .

لقد كان شجاعاً حقاً ، جريئاً في شجاعته ، مغامراً في جُرأه ، لايخاف أحداً ولا يخشى شيئاً ، غير خالق الناس والاشياء .

وهذه الملحمة قصّة واقعية تمثّل كثيراً من المزايا العربية العريقة : الشجاعة ، والأقدام ، والجرأة ، وحب المغامرة ، واجتياز الصحراء الشاسعة ، والوفاء ، والدفاع عن المستجير ، وتقاليد الجار ، والكرم والجود ، والمروءة .

جـ — في السلْطة ثانية :

مات الحجّاج بن يوسف الثقفي في سنة خمس وتسعين الهجريّة (٣٥) (٧١٣ م) ، ومات الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ست وتسعين الهجرية (٣٦) (٧١٤ م) ، فتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة أخيه الوليد ،

---

(٣٤) أنظر التفاصيل في الطبري (٤٤٨/٦ — ٤٥٣) وابن الأثير (٥٤٥/٤/٥٤٧) وانظر وفيات الأعيان (٣٢٢/٥) و (/٣٣١ — ٣٣٦) .

(٣٥) الطبري (٤٩٢/٦) وابن الأثير (٥٨٣/٤) والعبر (١١٢/١) .

(٣٦) الطبري (٤٩٥/٦) وابن الأثير (٨/٥ والعبر (١١٤/١) .

فأقبل الخير على يزيد بن المهلّب واليُسر ، وزال عنه الشرّ والعسر ، إذ تولّى الخلافة صديقه الصّدوق الذي كان لايطيع في يزيد أحداً يريده بشر حتى ولو كان الخليفة المتوج بالذّات .

وبادر سليمان بن عبد الملك في هذه السنة إلى عزل يزيد بن أبي مُسْلم (٣٧) عن العراق ، واستعمل يزيد بن المهلب على العراق ، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخَراج ، وأمره أن يقْتل آل أبي عَقِيْل ويبسط عليهم العذاب ، فقدم صالحُ العراقَ على الخراج ويزيد على الحرب ، فبعث يزيد أخاه زياد ابن المهلّب على (عُمَان) ، وأمره أن يكاتبَ صالحاً وأن يبدأ باسمه ، فأخذ صالح آل أبي عَقِيْل – وهم قوم الحجّاج – فكان يعذّبهم ، وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلّب (٣٨) .

وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد ، ويجعل وليّ عهده ولده عبد العزيز بن الوليد ، وتابعه على ذلك الحجّاج وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهليّ (٣٩) . لذا انتقم منهما سليمان بعد توليه الخلافة .

وكان قتيبة قد خاف سليمان وخاف أن يولّي يزيد بن المهلّب خُراسان ، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يُهنّئه بالخلافة ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنّه له على مثل ذلك إنْ لم يعزله عن خُراسان ، وكتب إليه كتاباً آخر يُعْلمه فيه فتوحه ونكايته وعِظَمَ قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعِظَمَ صولته فيهم . ويذمّ آل المهلّب ويحلف بالله لئن استعمل يزيدَ على خُراسان ليخلعنّه . وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه ، وبعث الكتب الثلاثة مع رجلٍ من باهلة – قبيلة قتيبة – وقال له : « ادفع الكتاب الأوّل إليه ، فإن كان يزيد حاضراً فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فادفعْ إليه هذا الثاني ،

(٣٧) انظر سيرته في وفيات الأعيان (٥/٣٥٣ – ٣٥٦ .
(٣٨) الطبري (٦/٥٠ وابن الأثير (٥/١١) ووفيات الأعيان (٥/٣٣٨) .
(٣٩) الطبري (٦/٥٠٦ – ٥٠٧) وابن الأثير (٥/١٢) ووفيات الأعيان (٥/٣٣٨) .

فان قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثالث ، فان قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحبِسْ الكتابين الآخَرَيْن » .

وقدِم رسول قتيبة دمشق ، فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب ، فدفع إليه الكتابَ الأول ، فقرأه وألقاه إلى يزيد . ودفع إليه الكتاب الآخر ، فقرأه وألقاه إلى يزيد . وأعطاه الكتاب الثالث ، فقرأه فتغيّر لونه وختمه وأمسكه بيده (٤٠) .

وقد قُتل قتيبة بن مُسْلمٍ الباهلي بعد ذلك كما هو معروف .

وقبل أن يرحل يزيد من دمشق إلى العراق ، قدّر أنّ العراق قد أخربها الحجّاج ، وأنه رجاء أهل العراق يتوقّعون منه الخير الكثير ، وأنّه متى قدِمَها وأخذ الناس بالخَرَاج وعذّبهم عليه صار مثل الحجّاج يدخل على الناس الحرب والشقاء ، ويعيد عليهم تلك السجون والمعتقلات التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم يأت سليمان بمثل ماجاء به الحجّاج لايقبل منه ويحسبه مقصِّراً في أداء واجباته الاداريّة .

ووجد يزيد مخرجاً لنفسه ، فتنفس الصّعداء !

وأتى سليمان فقال له : « أدلُّكَ على رجلٍ بصيرٍ بالخراج توليه إياه ، وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تَميم » ، فقبل سليمان مشورة يزيد .

وأقبل يزيد إلى العراق ، وكان صالح قد قدِمَ العراق قبل قدوم يزيد ونزل مدينة (واسِط) . ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقّونه ، ولم يخرج صالح حتى قرب من المدينة ، فخرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشّام ، فلقى يزيد وسايره ، فلما دخل المدينة قال له صالح : « قد فرّغت لك هذه الدار » ؛

(٤٠) انظر التفاصيل في الطبري (٥٠٦/٦ ـ ٥٠٨) وابن الأثير (١٢/٥) ووفيات الأعيان (٣٣٨/٥) ، وانظر سيرة قتيبة بن مسلم الباهلي في كتابنا : قادة فتح بلاد ماوراء النهر .

فنزل يزيد ، ومضى صالح إلى منزله .

وضيّق صالحٌ على يزيد ، فلم يملّكه شيئاً ولم يمكّنه من شيء .
واتّخذ يزيد ألف خوان يُطعم الناسَ عليها ، فأخذها صالح ، فقال يزيد :
« اكتُبْ ثمنها عليّ » . واشترى يزيد متاعاً وكتب صكّاً بثمنه إلى صالح ،
فلم يقبله صالح !

وضجر يزيد بالعراق ، وكان سليمان ولاه العراق ولم يولّه خُراسان ،
وضيّق عليه صالح فلم يتّصل معه إلى شيءٍ !

ودعا عبد الله بن الأهْتَم وقال له : « أنا فيما ترى من الضّيق ، وقد
ضجرت منه ، وخُراسان شاغرة ، فهل من حيلة ؟ » .

واقترح ابن الأهتم على يزيد أن يسرّحه إلى أمير المؤمنين ليسعى في ضمّ
خراسان إليه .

وسار ابن الأهتم إلى سليمان ، فأقنعه أن يضم خُراسان إلى يزيد ، فقال
سليمان : « العراق أحبّ إليه من خُراسان » ، فقال ابن الأهتم : « قد علمتُ ،
ولكن تُكرهه فيستخلف على العراق ويسير » .

وكتب سليمان عهد يزيد إلى خُراسان وسيّره مع ابن الأهتم ، فأتى
يزيدَ ، فأمر بالجهاز للمسير ساعته ، وقدّم ابنه مَخْلَداً إلى خُراسان من
يومه . ثم سار يزيد بعده ، واستخلف على واسط الجرّاح بن عبد الله الحكَميّ ،
واستعمل على البصرة عبد الله بن هلال الكِلابيّ ، وجعل أخاه مَرْوان بن
المهلّب على حوائجه وأموره بالبصرة ، وكان أوثق إخوته عنده ، واستخلف
بالكوفة حَرْمَلة بن عُمَيْر اللَّخْميّ أشهراً ثمّ عزله ، وولّى بشير بن
حيّان النَّهْدِي .

وكانت قبائل قَيْسٍ تزعم أنّ قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِليّ لم يَخْلَع
سليمان بن عبد الملك . فلما سار يزيد إلى خُراسان أمره سليمان أن يسأل عن

قتيبة ، فان أقامت قيس البيِّنة أنّ قتيبة لم يَخلع أن يقيِّد وكيع بن حسّان ابن أبي سُود التَّميميّ قاتل قُتَيْبَة بن مُسلِم به .

ولما وصل مَخلَد بن يزيد بن المهلّب (مَرْو) أخذ وكيعاً فحبسه وعذّبه وأخذ أصحابه وعذّبهم قبل قدوم أبيه ، وكانت ولاية وكيع خُراسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر . ثم قدم يزيد بن المهلّب خراسان في هذه السنة ، فأدنى أهل الشَّام وقوماً من أهل خُراسان ، فقال عبد الملك بن سلام السَّلُوليّ يشكر يزيد نيابة عن الذين قرّبهم وأصالة عن نفسه :

مازال سَيْبُكَ يايزيد بحوبَتي
حتى ارتويتُ ، وَجُودُكُمْ لايُنْكَرُ
أنت الرّبيعُ إذا تكون خَصاصةٌ
عاشَ السَّقيمُ به وعاش المُقْتِرُ
عَمّت سحابَتُهُ جميعَ بلادِكم
فَرَوَوْا وأغدَقَهُم سَحابٌ مُمْطِرُ
فسقاكَ ربّكَ حيثُ كنتَ مَخيلةً
ريّاً سَحَائِبُها تَروحُ وتُبكِرُ

وقال نَهَار بن تَوْسعة يلوم يزيد أصالة عن نفسه ونيابة عن الذين لم يقربهم :

وما كنَّا نُؤمّلُ من أميرٍ
كما كنَّا نُؤمّل من يزيدِ
فأخطأ ظَنُّنا فيه وقِدْماً
زَهِدْنا في معاشَرَةِ الزَّهيدِ
إذا لم يُعْطِنا نَصَفاً أميرٌ
مَشَيْنا نَحْوَهُ مِثْلَ الأسُودِ
فمهلاً يا يَزيدُ أَنِبْ إلينا
ودَعْنَا من مُعَاشَرَةِ العبيدِ

نجيئ فلا نرى إلاّ صُدوداً
على أنّا نُسلّم من بعيد
ونرجعُ خائبينَ بلا نوال
فما بالُ التجهّمِ والصُّدُود ! (٤١)

ومن الواضح أن يزيد قرّب المخلصين للدولة الذين لم ينغمسوا في الفتنة ولا لوثوا أيديهم بالدماء ، فأرضى قوماً وأسخط آخرين ، ولم يكن يزيد في تقريبه مَنْ قرّب وإبعاده مَنْ أبْعَد ، إلاّ رجل دولة يضع المصلحة العليا للدولة فوق كلّ اعتبار .

لقد كان يزيد موضع ثقة سليمان الكاملة ، فقد جمع له العِراقَيْن(٤٢) وامتدّت ولايته فشملت المشرق الاسلامي كلّه ، يولي على أقاليمه مَنْ يشاء ، ويعزل مَنْ يشاء ، فكان في عهد سليمان من ألمع أمراء الدولة وأقربهم إلى الخليفة .

ولم يقصر يزيد في النهوض بواجبه إدارياً في استعادة الأمن والاستقرار وجمع الصفوف وتوحيدها ، وقائداً في استعادة الفتح كما مرّ بنا في الحديث عن فتوحه ، ولكن أيام عرسه انقضت بسرعة بموت سليمان ، فذهب نُسره وأقبلت عليه ثانية أيام العسر .

د ـ في الحبس ثانيةً :

كان ليزيد سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) نشاط عسكري لامع في جُرْجان وطَبَرِستان .

وفي سنة تسع وتسعين الهجرّية (٧١٧ م) تُوفي سليمان بن عبد الملك (٤٣) ،

(٤١) أنظر التفاصيل في الطبري (٥٢٣/٦ ـ ٥٢٩) وابن الأثير (٢٣/٥ ـ ٢٦) وانظر وفيات الأعيان (٣٣٨/٥ ـ ٣٤١) والمعارف (٣٦١) و (٤١٦) .
(٤٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣١٧/١) .
(٤٣) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والعبر (١١٨/١) .

فخلفه عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان رضي الله عنه .

وكان يزيد قد كتب إلى سليمان بن عبد الملك يبشّره باستعادة فتح جُرْجان وطبرستان ويذكر له : « وقد صار عندي من خُمس ما أفاء اللهُ على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذي حقٍ حقّه من الفَيء والغنيمة ستة آلاف ألف درهم ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » ، فنصحه كاتبه ألاّ يكتب بتسميه المال حتى لايُستَجَّل في السجلات ، فاذا ولي خليفة بعد سليمان طالب به ، وإن ولي مَنْ يتحامل عليه لم يَرْض بأضعافه ، ولكنّ يزيد رفض النصيحة وأمضى الكتاب (٤٤) .

وبادر عمر بن عبد العزيز إلى عزل يزيد عن العراق وخُراسان ، ووجّه على البَصْرة وأرضها عَدِيّ بن أرْطَاة الفزَاريّ ، وبعث على الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العَدَويّ القُرَشِيّ من بني عَدِيّ بن كَعْبَ (٤٥) رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قُرَيش .

وكتب عمر بن عبد العزيز سنة مئة الهجرية (٧١٧ م) إلى عَدِيّ بن أرْطَاة أمير البصرة يأمره بانفاذ يزيد بن المهلب موثقاً ، وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه ، فاستخاف يزيد ابنه مَخْلَداً وقدم من (خُراسان) حتى نزل مدينة (واسِط) ، ثمّ ركبَ السُّفن يريد البصرة ، فبعث عَدِيّ بن أرطَاة موسى بن الوَجِيْه الحِمْيَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) عند الجسر بالقرب من البصرة ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق (٤٦) .

ولم يكن عمر بن عبد العزيز ممّن يرضى بأنصاف الحلول أو يقنع بغير الحق ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان ، فاعتذر :

(٤٤) الطبري (٦/٥٤٤ ـ ٥٤٥) .
(٤٥) الطبري (٦/٥٥٤) وابن الأثير (٥/٤٣) وانظر وفيات الأعيان (٥/٣٤١) .
(٤٦) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٦ ـ ٥٥٧) وابن الأثير (٥/٥٨ ـ ٥٩) .

بأنه كتب ما كتب إلى سليمان ليسمِّع الناس به ، وسليمان لايأخذه بما كتب ، والواقع أن ما كتب فيه مبالغة ! ولكنّ عمر أصرّ على أن يدفع يزيد المال إلى بيت مال المسلمين أو يعود إلى محبسه .

ولم ينفع ما بذله مَخْلَد ابنه من جهد عند عمر بن عبد العزيز لانقاذ أبيه يزيد من الحبس ، كما لم ينفع يزيدَ ما بذله أصدقاؤه وأحباؤه في انقاذه من الحبس ، فقد كان قرار عمر بن عبد العزيز نهائياً ، فإمّا المال كاملاً ، وإما السجن ، ولا ثالث لهذين المسلكين .

لقد نُصِح يزيد بألاّ يسجِّل على نفسه في كتابه إلى سليمان هذا المبلغ الضخم من المال ، فلم ينتصح ، فعانى ما عانى في السجن ، وتحمّل ما تحمل في الهرب من السجن ، ودفع حياته ثمناً في حرب عقيمة في النهاية .

٢ ـ الجواد

كان يزيد يحبّ هذا المال حبّاً جما ، ولكن لم يكن يكتنزه لنفسه ، بل يجود به على الناس نَقْداً وطعاماً وشراباً وثياباً وهدايا ، فمن المعروف أنه لم يشيِّد له داراً يأوي اليها ، واقتناء الدار للسكنى من أهم ما يحرص عليه الناس جميعاً ، فله الأسبقية بالنسبة للذين يحبّون جمع المال ، وهو السبيل الأول لانفاق المال .

ولو كان يزيد يحب المال من أجل المال ، لامن أجل الجود به ، لكان له دار يرتاح بها ويُريح ، ولكنه حرم نفسه حتى من متعة اقتناء الدار .

قيل ليزيد : مالكَ لاتبني ؟ ! قال : « منزلي دار الامارة أو الحَبْس »(٤٧) وقيل له : لِمَ لا تبني بالبصرة دارا ؟ ! فقال : « لأني لا أدخلها إلاّ أميراً أو أسيرا ، فان كنتُ أسيراً فالسجن داري ، وإن كنتُ أميراً فدار الامارة

(٤٧) عيون الاخبار (٢٣٦/١) والعقد الفريد (٢٢٣/٦) .

داري » (٤٨) . وقال بعض جلساء يزيد له : لِمَ لاتتّخذ لك دارا ! ؟ فقال : « وما أصنع بها ، ولي دار حاصلة مجهّزة على الدّوام ؟ » ، فقال له : وأين هي ؟ ! فقال : « إنْ كنتُ متولّياً فدار الامارة ، وإن كنتُ معزولاً ، فالسِّجن » (٤٩) .

لقد كان يزيد يحبّ ثناء الناس عليه ، والكرم هو الذي يطلق الألسنة بالثناء من عقالها ، وينطق الذين دأبوا على السكوت . قال يزيد يوماً : « والله للحياة أحبّ من الموت ، والثناء الحسن أحبّ إليّ من الحياة ، ولو أني أُعطيتُ ما لم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لي أُذن أسمع بها غداً ما يُقال فيّ إذا متّ » (٥٠) .

ويبدو أنه لم يكن يحب السُّلطة إلاّ من أجل أن تعينه على جمع المال والجود به على الناس ، فكان ينتقل من الأوج أميراً إلى السجن أسيراً لمحاسبته على المال الذي أنفقه على الناس .

وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يكن في دولة بني أُميّة أكرم من بني المهلّب ، كما لم يكن في دولة بني العبّاس أكرم من البرامكة (٥١) ، وكان يزيد بلامراء أكرم بني المهلّب على الأطلاق .

اتخذ يزيد ألف خوان يُطعِم النّاس عليها (٥٢) كل يوم ، ومرّ في طريق البصرة بأعرابيّة فأهدت إليه عَنْزاً ، فقبلها وقال لابنه معاوية : « ما عندكَ من نفقة ؟ » قال : « ثمانمائة درهم » ، قال : « ادفعها إليها » ، قال : « إنها لا تَعْرُفُك ويرضيها اليسير » ، قال : « إن كانت لاتعْرفني ، فأنا

---

(٤٨) عيون الأخبار (٣١٢/١)
(٤٩) وفيات الأعيان (٣٣٧/٥) .
(٥٠) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥١) وفيات الأعيان (٣٢٦/٥) .
(٥٢) الطبري (٥٢٤/٦) وابن الأثير (٢٣/٥) .

أعرف نفسي ، وإن كان يرضيها اليسير ، فأنا لاأرضى إلاّ بالكثير » (٥٣) .

وقدم على يزيد وفد من قُضَاعة ، فقال رجل منهم :

والله ِ ما نَدْري إذا ما فاتَنَا
طَلَبٌ إليكَ مَنْ الذي نَتَطَلّبُ

ولقد ضَرَبنا في البلاد فلم نَجِدْ
أحداً سواك إلى المكارِم يُنْسَبُ

فاصْبِرْ لعادَتِنا التي عَوَّدْتَنَا
أو لا فَأَرْشِدْنا إلى مَنْ نَذْهبُ ؟

فأمر له يزيد بألف دينار ، فلما كان العام المقبل وفد عليه فقال :

مالي أرى أبوابَهم مَهْجُورَةً
وكأنّ بابَكَ مَجْمَعُ الأسواقِ (٥٤)

حابوكَ أم هابوكَ أم شاموا النّدى
بِيَدَيْكَ فاجتمعوا من الآفاقِ

إني رأيتك للمكارم عاشقاً
والمَكْرُماتُ قليلة العُشّاقِ

فأمر يزيد بعشرة آلاف درهم (٥٥) .

ولما هرب يزيد من الحجّاج قاصداً سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ

(٥٣) العقد الفريد (١/٣٠٦) .

(٥٤) مكان هذا الشعر في الأمالي :

يُربّ الذي يأتي من الخير انه — اذا فعل المعروف زاد وتمّما
وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه — تتبعه بالنقض حتى تهدّما

فأعطاه الفي دينار ، ثم اتاه في العام الثالث فقال :

اذا استمطروا كانوا معازير في الندى
يجودون بالمعروف عَوداً على يد

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، نقلاً عن هامش (٢) من العقد الفريد (١/٣٠٥) .

(٥٥) العقد الفريد (١/٣٠٥ — ٣٠٦) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٥ — ٣٢٦) .

بمدينة (الرَّمْـلة) الفلسطينيّة ، اجتاز طريقه إلى أرض الشّـام على أبيات للأعراب ، فقال لغلامه : « استسقنا من هؤلاء لبناً » ؛ فأتاه بلبن فشربه ، فقال : « أعْطِـهم° ألف درهم » ، فقال الغلام : « إنّ هؤلاء لايعرفونك » ، قال : « لكنني أعرف نفسي ! أعطهـم ألف درهم » ، فأعطاهم .

وحجّ يزيد ، فطلب حلاقاً ، فجاء وحلق رأسه ، فأمر له بألف درهم ، فتحيّـر الحلاّق ودَهش ، فقال: « بهذه الألف أمضي إلى أُمّي فلانة فأشتريها ، فقال : « أعطوه ألفين آخرين » .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص مواخياً ليزيد ، فلما كان في حبس عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، منع عمر النّاس من الدخول إليه ، فأ.اه سعيد وقال : « يا أمير المؤمنين ! لي على يزيد خمسون ألف درهم ، وقد حُـلْتَ بيني وبينه ، فان رأيت أن تأذن لي فأقتضيه » ، فأذن لـه . ودخل سعيد على يزيد ، فَسُرّ بـه يزيد وقال : « كيف وصلتَ إليّ ؟ ! » ، فأخبره سعيد ، فقال : « والله لا تخرج إلاّ وهي معك » ، فامتنع سعيد ، فحلفَ يزيد ليقبضَنّـها ، فوجّـه إلى منزله حتى حُمِل الى سعيد خمسون ألف درهم .

وفي ذلك قال بعض الشعراء :

فـلـم أرَ محـبـوساً من النّـاس ماجـداً
حبـَا زائـراً في السِّجن غير يزيـد
سعيد بن عِمرو إذ أتاهُ أجـاره
بخمسين ألفاً عُـجِّـلت لسعيد (٥٦)

وباعَ وكيل يزيد بطيخاً جاءه من بعض أملاكه بأربعين ألف درهم ،

(٥٦) وفيات الأعيان (٥/٣٢٤) وعيون الأخبار (٣٤٣/١ ـ ٣٤٤) ، والشاعر الذي وصف كرم يزيد هو عَدِيّ بن الرّقاع .

فبلغ ذلك يزيد ، فقال له يزيد : « تركتنا بقّالين ! أما كان في عجائز الأَزْد مَنْ تقسمه فيهنّ !! » ، وغضب غضباً شديدا (٥٧) .

ومدحه عمر بن لجأ بشعرٍ فقال :

آل المهلّب قوم إن نسبتهمُ
كانوا المكارمِ آباءً وأجدادا
كم حاسدٍ لهمُ يَعْيَا بفضلهمُ
وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إنّ العَرانِيْنَ تلقاها مُحَسَّدَةً
ولا ترى للئام النّاس حُسّادا
لو قيل للمجدِ : حِدْ عنهمْ وخلِّهمُ
بما احتكمتَ من الدنيا لما حادا
إنّ المكارمَ أرواحٌ يكون لها
آل المهلّب دون الناس أجسادا (٥٨)

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصَيْرْ : « اغرم ديتَك خمسين مرّة » ، قال : « ليس عندي ما أغرم » قال : « والله لتغرمَنَّ ديّتك مئة مرّة » ، فقال يزيد : « أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين » ، قال : « اغرمْ ! » ، فغرمها عنه مئة ألف درهم (٥٩) .

واستعمل الوليد بن عبد الملك على المدينة المنورة عثمانَ بن حَيَّان المُرِّي وأمره بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة ، فلما استُخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم . واجتمعت القَيسيَّة في ذلكَ ، فتحملوا شَطْرَها وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطْر الثاني . ووافق ذلك استعمالُ سليمان على العراق يزيدَ ،

(٥٧) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥٨) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥٩) العقد الفريد (٣٠٣/١) .

فقال عمر بن هُبَيْرَة : « عليكم بيزيد بن المُهلّب ، فما لها أحد غيره » . ورحلوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هُبَيْرَة والقَعْقَاع بن حَبيب والهُذَيْل ابن زُفَر بن الحارث حتى انتهوا إلى رُواق يزيد . قال يحيى بن أَقْتَل – وكان حاجباً ليزيد ، وكان رجلاً من الأَزْد : فاستأذنتُ لهم ، فخرج يزيد إلى الرُّواق ، فَقرّبَ ورحّب ، ثم دعا بالغداء ، فأتُوا بطعام ما أنكروا منه أكثرُ مما عَرفوا ، فلما تغدَّوْا تكلّم عثمان بن حيّان وكان لسِناً مُفوّها وقال : زادكَ الله في توفيقك أيها الأمير ! إن الوليد بن عبد الملك وجّهني إلى المدينة عاملاً عليها ، وأمرني بالغِلْظَة على أهل الظِّنة . . . . وإنّ سليمان أغرمني غُرماً واللهِ مايَسعه مالي ولا تحمله طاقتي ، فأتيناكَ لتَحْمِلَ من هذا المال ما خفّ عليك ، وما بقي والله ثقيل عليّ . وتكلّم كل مَنْ حضر بما حضرهُ . فقال يزيد : مَرْحباً بكم وأهلاً ! إنّ خير المال ما قُضِيَت فيه الحقوق ، وحملت به المغارم ، وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني ، وايم الله ، لو علمت أنّ أحداً أملأ بحاجتكم مني لهديتكم إليه ، فاحتكموا وأكثروا ! فقال عثمان بن حَيّان : النِّصْف ، أصلح الله الأمير ! قال : نَعَم ، وكرامة ، اغدوا على مالكم فخذوه ، فشكروا له وقاموا وخرجوا . فلما صاروا على باب السُّرادق ، قال عمر بن هُبَيْرَة : قبّحَ الله رأيَكم ! واللهِ ما يُبالي يزيد أنِصْفَها تحمَّل أم كلَّها ، فمن لكم بالنِّصف الباقي ! ؟ قال القوم : هذا والله لرأي . وسمع يزيد مناجاتهم ، فقال لحاجبه : انظر يا يحيى إنْ كان بَقي على القوم شيء فليرجعوا ، فرجعوا إليه ، وقالوا : أقِلْنَا ! قال : قد فعلتُ . قالوا : إن رأيتَ أن تحملَها كلّها فأنت أهلُها ، وإن أبيتَ فما لها أحد غيرك . قال : قد فعلتُ . وغدا يزيد إلى سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ! أتاني عثمان بن حَيَّان وأصحابه ، قال : أمسِكَ في المال ؟ قال : نعم . قال سليمان : والله لآخذنّه

منهم ! قال يزيد : إني قد حَملته ! قال : فأدِّه . قال يزيد : والله ما حملته إلاّ لأُؤديه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! إنّ هذه الحَمالة وإن عظم خَطبها ، فَحَمْدُها والله أعظم منها ، ويَدِي مبسوطة بيدك ، فابْسطها لسُؤّالها . ثم غدا يزيد بالمال إلى الخُزّان فدفعه إليهم ، فدخلوا على سليمان فأخبروه فقبض المال ، فقال : وَفَتْ يمينُ سليمان ، احملوا إلى أبي خالد ماله » . فقال عَدِي بن الرِّقاع العامليّ :

والله عَيْنَا مَنْ رأى كحَمَالة
تحمّلها كَبْشُ العراق يزيدُ (٦٠)

وخرج العُدَيْل بن الفَرْخ الشاعر يريد الحجّاج ، فلما صار ببابه حجبه الحاجب ، فوثَبَ عليه العُدَيْلُ وقال : « إنه لن يدخل على الأمير بعد رجالات قريش أكبر مني ولا أولى بهذا الباب » ، فنازعه الحاجبُ الكلامَ فأحفظه . وانصرف العُدَيل عن باب الحجّاج إلى يزيد ، فلما دخل إليه أنشأ يقول :

لئن أرْتَجَ الحجّاجُ بالبخل بابَه
فبابُ الفتى الأزْدِيّ بالعُرْف يُفْتَحُ
فتىً لايبالي الدهرَ ما قلّ مالُه
إذا جعلتْ أيدي المكارم تسنَحُ
يداهُ يدٌ بالعُرف تُنْهبُ ماحوتْ
وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ
إذا ما أتاه المرملون (٦١) تيقنوا
بأنّ الغِنى فيهم وشيكاً سيَبرَحُ

---

(٦٠) العقد الفريد (١/٣٠٣ ــ ٣٠٥) .

(٦١) المرملون : مَن نفد زادهم .

هلمّوا إلى سَيْبِ الأمير وعُرفِه
فانّ عطاياه على النّاس تَنْفَحُ
وليس لعِلْجٍ من ثمودَ بكفّه
من الجودِ والمعروف حزم مطوّحُ

فقال يزيد : « عرّضْتَ بنا ، وخاطرتَ بدمك ، وبالله لايصلُ إليك وأنت في حيزّي » ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، وحمله على أفراس ، وقال له : « الْحَق بعلياء نَجْدٍ ، واحذر أن تعلقك حبائل الحجّاج أو تحتجنَك محاجِنُه (٦٢) ، ابعث إليّ في كلّ عام ، فلك عليّ مثل هذا » ، فارتحل . وبلغ الحجّاج خبرُه ، فأحفظه ذلك على يزيد ، وطلب العُدَيل ففاته (٦٣) .

وليس من السّهل أن يحمي أحد من يطلبه الحجّاج ، وكان يومئذٍ أقوى شخصية بعد الخليفة ، وكان يُجيْر ولا يجار عليه إلاّ من أمير المؤمنين ، ولكن مروءة يزيد جعلته يُقدم على حماية هذا الشاعر ويدفَع له المال الجزيل ، ويهرّبه إلى مكان قصيّ ، وهو يعلم حقّ العلم انه يغضب الحجّاج ويتحدّاه بما أسدى للشاعر من خير ، وأنّ الحجّاج لايسكت عمّن يغضبه ولا عمّن يتحدّاه .

ودخل كُرَيز بن زُفَر بن الحارث على يزيد فقال : « أصلح الله الأمير ! أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك ، ولستَ تفعل من الخير شيئاً إلاّ وهو يَصْغُر عنك وأنت أكبر منه ، وليس العجب أن تفعل ، ولكنّ العجب ألاّ تفعل » ، قال : « سَلْ حاجتك » قال : « قد حملتُ عن عشيرتي

(٦٢) محاجنه : عصيته المعوجّة التي يحتجن الناس بها كالخطاطيف .
(٦٣) الأغاني (٢٢/٣٣٠ ــ ٣٣١) .

عَشْر ديات » ، قال : « قد أمرتُ لك بها وشَفعتُها بمثلها » (٦٤) .

وقال يزيد بن المهلّب لسليمان بن عبد الملك في حَمَالة كلّمه فيها : « يا أمير المؤمنين ! والله لحَمدُها خيرٌ منها ، ولذِكرُها أحسن من جَمْعِها ، ويَدِي مبسوطة بيدك فابسُطْها لسؤالها » (٦٥) .

ولعلّ أبلغ ما يمكن أن يوصف به جُوْدُ يزيد ، ما كان يقوله هشام ابن حسان إذا ذكره : « والله إن كانت السُّفن لتَجْري في جوده » (٦٤) .

٣ . السجايا والأضداد

كان يزيد جواداً مُمَدّحاً كثير الغزو والفتوح (٦٧) ، وكان يحبّ هذا الفخر ، فأقبل عليه الشعراء بخاصة ، يمدحونه ويثنون عايه .

ومن الشعراء الذين مدحوه الفرزدق ، فقد كان يهجو المهلّب بن أبي صُفْرَة الأَزدِيّ ، فلما ولى سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ خُراسان والعراق ، مدحه الفرزدق فقال :

فلأَمْدَحَنّ بنى المهلّب مِدْحةً
غرّاء قاهرة على الأشعار
مثل النّجوم امامها قمْراؤها (٦٨)
وخلائقاً كتدّفّقِ الأنهار
ورِثوا المهلّب للعراق وقايةً
وحَيا الرّبيع ومَعْقِل الفُرار

(٦٤) العقد الفريد (١/٢٥٥) وانظر عيون الاخبار (٣/١٢٤) .
(٦٥) عيون الأخبار ٣/١٣٠ .
(٦٦) العقد الفريد (١/٣٠٣) .
(٦٧) العبر (١/١٢٤) .
(٦٨) القمراء : ضوء القمر .

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم
خضعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصار
مازال مُذ شَدّ الازار بكفّه
ودنا فأدرك خمسة الأشبار (٦٩)
أيزيدُ إنّك للمهلّب أدركت
كفّاك خير خلائِق الأخيار (٧٠)

وقال الفرزدق أيضاً :

إن المهالبةَ الكِرامَ تحمّلوا
دَفْعَ المكارهِ عن ذوى المكروه
زانوا قديمَهمُ بحسن حديثهم
وكريم أخلاقٍ بحسنِ وجوه (٧١)

وفي يزيد وآل المهلّب يقول الشاعر :

نزلتُ على آل المهلّب شاتياً
غريباً عن الأوطان في زمن المحْل
فما زال بي إحسانُهم وافتقادهم
وبرّهم حتى حسبتهمُ أهلي (٧٢)

والشعر في مدح يزيد كثير ، نكتفي بهذا القليل لاعطاء ، فكرة واضحة لاستقطاب يزيد للشعراء حوله ، وهباته هي التي استقطبتهم بالدرجة الأولى على كل حال .

ومضى يزيد إلى جوار الله ، ومضى ماله في وجوه إنفاقه ، وبقى الذكر الحميد

---

(٦٩) خبر (مازال) مفهوم من المقام ، اي مازال كريماً مهيباً ونحو ذلك .
(٧٠) الأغانى (٢٢/٣٤٥ — ٣٤٦) .
(٧١) النجوم الزاهرة (١/٢٦٩) .
(٧٢) المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا (١/٢٠١ — ٢٠٢) .

ومن مزايا يزيد ، شجاعته الخارقة ، فما هرب في حرب ، وقاتل في كلّ معركة خاضها قتال الأبطال الأفذاذ .

وفي المعركة التي قتل فيها ، استقتل بعد فرار معظم جيشه ، وكان لايحدّث نفسه بالفرار ، فجاءه مَنْ أخبره أن أخاه حَبيباً قد قُتل ، فقال : « لاخير في العيش بعد حبيب لقد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، فوالله ما ازددتُ لها الا بغضاً . . . امضوا قُدُما » . وأخذ يكرّ ، كلما مرّ بخيل كشفها ، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وهمس باذنه أحد المقربين اليه ، أن الناس قد ذهبوا ، فانْصَرف الى (واسط) فانها حصن تنزلها ، ويأتيك المدد من البصرة ، ويأتيك أهل عُمان والبحرين في السفن ، وتضرب خندقاً ، فقال « قبّح الله رأيك ! إليّ تقول ؟ ذا الموت أيسر عليّ من ذلك » (٧٣) .

وبعد أن انجلت تلك المعركة عن مقتل يزيد أتى برأسه الى مسلمة بن عبد الملك ، فلم يعرف الرأس ، فقال حَيَّان النَّبَطِيّ : « مهما ظننتم فلا تظنّوا أن الرجل هرب ، ولقد قُتل » ، فقال مسلمة : « وما علامة ذلك ؟ » فقال : إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول : قبّحَ الله ابن الأشعث ! هَبُوه غُلب على أمره . أكان يُغلب على الموت ؟ ! ألا مات كريما » (٧٤) .

وفي معارك استعادة فتح جُرْجان ، اختار يزيد ثلاثمائة من أصحابه الشجعان للنهوض بمهمة اقتحامية محفوفة بالأخطار ، وجعل عليهم ابنه خالداً وقال له : « إن غُلِبْتَ على الحياة ، فلا تُغْلَبَنّ على الموت ، وإياك ان أراك عندي منهزما » (٧٥) .

لقد كان يزيد مقاتلاً رهيبا ، وصدق ثابت بن قُطْنَة الذي قال في يزيد :

---

(٧٣) وفيات الأعيان (٣٤٨/٥) .
(٧٤) وفيات الأعيان (٣٤٩/٥) .
(٧٥) الطبري (٥٤٣/٦) .

كلُّ القبائلِ بايعوكَ على الذي
تَدْعُو اليه وتابَعُوكَ وساروا
حتى إذا اخْتَلَفَ القنَا (٧٦) وجعلتهمْ
نصبَ الأسِنَّةِ أسلموكَ وطاووا
إنْ يَقْتُلوك فانَّ قتْلَكَ لم يكُنْ
عاراً عليكَ ، وبعضُ قَتل عار(٧٧)

واذا كان بالامكان ان يقال شيءٌ في شعر الثناء . لأنّ حافزه غالباً (الرجاء) فلا يمكن أن يقال شيءٌ مثله في شعر الرثاء ، لان حافزة دوماً (الوفاء) ، وليس منْ يأخذ كمن يعطي !

وقد كان يزيد يتمثل كثيراً في الحرب بقول حُصين بن الحُمَام :

تأخرتُ أسْتَبْقي الحَياة فلم أجِدْ
لنفسي حياةً مثل أن أتَقَدْما (٧٨)

وقد نُسب هذا البيت من الشعر في عيون الأخبار ليزيد (٧٩) ، والصواب أنّ البيت ليس من مَقُوله ، ولعل صاحب كتاب عيون الأخبار نسبه الى يزيد لكثرة ما كان يتمثَل به يزيد ، فنسبه الرواة اليه .

والمهم أنّ يزيد كان يردد هذا البيت كثيراً حتى أصبح له شعاراً ، وكان يلتزم التزاماً جازماً بهذا الشِّعار ، ورفع الشِّعار شيءٌ ، والالتزام به شيءٌ آخر ، وشتانَ بين رَفْعِ الشِّعارات وبين الالتزام بها !

(٧٦) في الاغاني : حتى اذا حمس الوغى .

(٧٧) الشعر والشعراء (٥٢٧) ، وقد دخل هذا البيت في أبيات لحبيب بن خدرة الخارجي يرثي بها زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب رضي الله عنه ، انظر شعر الخوارج (٨٠) ، ومن المستطرف ان يرثي أحد الخوارج رجلاً من آل على رضي الله عنه .

(٧٨) العقد الفريد (١/١٠٤) .

(٧٩) عيون الأخبار (١/١٢٥) .

ج . ومما يحكى عن يزيد ، أنّ حيّة وقعت عليه في يوم من الأيام ، فلم يدفعها عن نفسه، فقال له أبوه : «ضيّعت العقل من حيث حفظت الشجاعة »(٨٠)

ولم أجد وصفاً ينطبق على يزيد في حاضره ومستقبله . كهذه الكلمات القليلة التي وصفه بها أبوه ، فهو من أجل الشجاعة ضيّع العقل !

فقد كان لايصغي الى ناصح ، ولا يستشير أحدا ، واذا اقتنع بأمر طبّقه دون ان يأخذ بنصيحة ناصحٍ أو برأيٍ مخالف لرأيه الذي اقتنع به .

نصحه كاتبه ألا يمضي كتابه الى سليمان بن عبد الملك : « . . . وقد صار عندي خمس ماأفاء الله على المسلمين بعد ان صار إلى كلّ ذى حق حقّه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف » (٨١) ، فما اكترث بنصيحة الكاتب المخلص الحصيف . وامضى الكتاب وأبرده الى سليمان ، فجر عليه عناده الويل والثبور وسجن في سجن (حلَب) ثم هرب من سجنه واعلن العصيان ، فدفع حياته ثمناً لهذا العناد .

ونصحه أخوه حبيب وغيره . أن يغادر العراق وينزل بفارس ويأخذ بالشعاب والعقاب ويدنو من خُراسان فيطاول أهل الشام في تلك المناطق النائية ، فقال : « ليس هذا برأيي ! تريدون ان تجعلوني طائراً على رأس جبل ! » (٨٢) ، وأصر على قبول المعركة الحاسمة بينه وبين مَسْلَمَة بن عبد الملك في ارض العراق التي يتفوق فيها مَسْلَمَة على يزيد تفوقاً بعيداً .

وبعد هرب اصحابه في تلك المعركة ، واصبحت نتيجتها مضمونة لمسْلَمَة واصبح موقفه يائساً إلى أبْعَد الحدود . أصرّ على أن يقاتل حتى الموت ، دون أن يلتفت الى نصيحة النّاصحين له بالانسحاب .

إنه من اجل الشّجاعة ضيّع العقل ! وعقدته هي ألا يتحدّث العرب بأنّ يزيد

(٨٠) وفيات الأعيان (٥/٣٢٦) .
(٨١) الطبري (٦/٥٤٤ – ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٥/٣٥ – ٣٦) .
(٨٢) ابن الأثير (٥/٧٦) .

هرب والفرق شاسع بين الهزيمة والانسحاب .

ولو اردنا أن نتذكر مواقفه التي تدل على إصراره وتمسكه برأيه ، وضرب نصائح الناصحين له عرض الحائط ، لطال القول وتشعّب ، فيكفي دليلاً ماذكرناه .

د . وكان يحبّ هذا الفخر . ويطرب للثناء والمديح ، ومن أجل هذا الفخر بالغ في كتابه الى سليمان) استعادته فتح جُرْجان وطبرستان ، فجعل منه فتحاً لم يسبقه ال مثله أحد من الأكاسرة والقياصرة ومن الخلفاء الراشدين ولم يكن الأمر كذلك كما اسلفنا ، بل سبقه غيره من قادة الفتح الاسلامي في فتح هذين الاقليمين الشاسعين .

وبلا شك كان يستحق الثناء والاطراء بأعماله فاتحاً وإدارياً وجواداً ، ولكنه كان يحب أن يحمل الناس على إطرائه والثناء عليه ، حتى كانت من اغلى أمانيه على نفسه أن يعرف مايقوله الناس عنه بعد ان يفارق الحياة (٨٣) .

وبلغ به حبه للثناء والاطراء ، أنه يُقَرِّب الذين يثنون عليه ويطرونه ، ويُبْعِد الذين لايحبون التملق للحاكمين حتى ولو كانوا من الاهل والاقرباء .

فقد كان للمُغيرة بن المهلب ابن اسمه : بشر ذكره أبو تمام الطائي في كتابه (الحماسة) ، لم يكن يحب ان يتقرب إلى عمه بالثناء ، فجفاه يزيد ، فقال في يزيد :

جفاني يزيدٌ والمُغيرةَ قد جفا
وأمسى يزيدٌ لي قد ازورّ جانبُه
وكلُّهم قد نال شبعاً لبطنه
وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبُه

(٨٣) وفيات الأعيان (٥/٣٢٥) .

فياعم مَهْلاً واتّخذني لنوبــة
تنوبُ فانّ الدَّهرَ جمٌ نوائبُــه
أنا السَّيْف الا أن للسيف نَبْـوَةً
ومثلي لاتنبو عليكَ مضاربُــــه
على أي باب ابتغى الاذنَ بعدمـا
حجبْتُ عن البـاب الذي اناحاجبه (٨٤)

هـ . وكان يحبّ الامارة ويطلبها ويسعى اليها ، ولما ولي الحجاج خراسان المُفضّل بن المهلب وعزل يزيدَ ، وجعل المفضَّل يستحثّ يزيد ، فقال للمفضل « إنّ الحجاج لايقرُّكَ بعدي ، وانما دعاه الى ماصنع مخافة أن أمتنع عليه » ، فقال المفضل : « بل حَسَدتَني ! » (٨٥) .

وكان سليمان بن عبد الملك ، قد ولى يزيد العراق ولم يوله خَراسان ، فقال سليمان بن عبد الملك لعبد الملك بن المهلب وهو بالشام ويزيد بالعراق : « فكيف أنتَ ياعبد الملك إنْ وليّتُك خُراسان ؟ » « قال : « يجد ني أمير المؤمنين حيث يحبّ » ، ثم أعرض سليمان عن ذلك .

وكتب عبد الملك بن المهاب الى أصحابه وخاصته في خراسان : « إن امير المؤمنين عَرَضَ علي ولاية خُراسان » ، فبلغ الخبر يزيد .

وكان يزيد يطمع في خُراسان ، فأوفد مبعوثاً خاصاً يعتمد عليه الى سليمان ابن عبدالملك، وقال لمبعوثه : « قدبلغني أن امير المؤمنين ذَكَرَها ـ يريد خراسان ـ لعبد الملك بن المهاب ، فهل من حيلة ؟ » . فقال : « سرّحنى الى امير المؤمنين فاني أرجو أن آتيكَ بعهدكَ عليها » . قال « فاكتم ما اخبرتك به » (٨٦) . ولكن الخبر شاع . فسجّله التاريخ على يزيد ورواه الرواة عنه ، وما ينبغي أن

(٨٤) وفيات الأعيان (٥/٣٣٠) .
(٨٥) الطبري (٦/٣٩٥) .
(٨٦) الطبري (٦/٥٢٥) .

يبلغ حب السلطة والتكالب عليها حدّ التنافس بين الاخوين على منصب واحد من المناصب ، فقد كان السلف الصالح يعتبرون الامارة تكليفاً لا تشريفاً .

ولم يبق تنافس أبناء المهلّب على السلطة سِرّاً ، بل تناقلة الناس . فقال الشاعر في عزل يزيد عن خراسان وتولية اخيه المفضل ، ثم عزل المفضل بقُتَيْبة بن مُسْلم ، مخاطباً المفضل بن المهلب واخاه عبد الملك بن المهلب . وامهما

يا ابْنَـي بَهْلة إنـما أخـزاكمـا
ربيّ غداة غدا الهُمام الأزهر (٨٧)
أحَفَرْتُمُ لأخيكـمُ فَوَقَعْتُـمُ
في قَعْرِ مُظلمة أخُوها المُعْوَرُ
جُودوا بتوبةِ مُخْلِصِينَ فانـّما
يـأبـَى ويَأنَفُ أنْ يتُوب الأخُسرُ (٨٨)

ولعل سبب حرصه على الامارة هي رغبته في جمع المال وتوزيعه على الذين يقصدونه من الناس تطميناً لخصلة الكرم والأريحية والمروءة والشهامة والنجدة التي كانت من ابرز مزاياه ، ولكنه اسرف في العطاء ، حتى حبسه الحجاج واغرمه ستة آلاف ألف (٨٩) ، وأغرمه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ستة آلاف ألف أيضاً ، يوم كانت الشاة بنصف درهم .

ولاشك ان عطاءه بدون حساب ، هو كرم خارق ، ولكنه سرف خارق أيضاً لا يُحمد عليه .

و . ومما يؤخذ عليه ، تعصّبه لقبيلته بخاصة وللقحطانيين على العدنانيين بعامة ، وبلغ تعصّبه درجة جعلته يطاق سراح الأسرى من قبيلته ليعيشوا أحراراً ،

---

(٨٧) الهمام الأزهر : يريد به يزيد بن المهلب .
(٨٨) الطبري (٦/٣٩٥) .
(٨٩) الطبري (٦/٤٤٨) .
(٩٠) الطبري (٦/٥٤٤ ـ ٥٤٥) وابن الأثير (٥/٣٥ ـ ٣٦) .

وبعث ببقية الأسرى الى الحجاج لينزل بهم عقوبة الموت ويضرب اعناقهم بالسيف (٩١) .

وما هكذا يكون العدل ، ولا هكذا يكون الانصاف ! !

ونظر مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير (٩٢) ، الى يزيد وهو يمشي وعليه حُلَّة يسحبها ، فقال له : « ما هذه المِشْيَة التي يبغضها الله ورسوله ؟ ! » ، فقال يزيد : « أما تعرفني ؟ ! » ، قال : بلى ! أولك نُطْفَةٌ مَذِرَة ، وآخرك جِيفَةٌ قَذِرة ، وانت بين ذلك تحمل العَذِرَة » (٩٣) .

فقد كان فيه كِبر وخيلاء ، تعجبه نفسه كثيراً ، ذا همّة عالية ، لايعرف الكلل والملل ، ويكره العَجَز والتواكل ، ومن أقواله : « مايسرّني أن أكفى أمور دنياي كلّها ، ولي الدنيا بحذا فيرها » ، فقيل له : ولمَ ذلك ؟ ! فقال « إني اكره عادة العَجَز » (٩٤) .

ولعل من اسباب كِبره ، وخيلائه ، شعوره بالتفوق على مَن حوله من الناس كفاية واقتداراً . وثراء وجاها . ومنصباً ومكانة ، ولكن التواضع من الخصال الحميدة التي يعجب بها الناس ويعجبون بصاحبها .

ولم يكن يزيد يتنازل عن خيلائه واعجابه بنفسه حتى في حضرة امير المؤمنين ، فقد سأله سليمان بن عبد الملك : « فيمن العِزّ بالبَصْرَة ؟ » ، قال «فينا وفي حلفائنا من ربيعة » ، قال سليمان : «الذي تحالفتما عليه أعز منكما» (٩٥)

وصدق عمر بن عبد العزيز رضى الله الذي يقول عن يزيد وأهل بيته :

---

(٩١) انظر التفاصيل في الطبري (١٦/٣٧٥ – ٣٨٣) .
(٩٢) مطرّف بن عبدالله بن الشخير الفقيه الفاضل ، انظر جمهرة انساب العرب (٢٨٨) .
(٩٣) وفيات الأعيان (٦/٣٢٧) ، والمذرة : الفاسدة . والعذرة : الغائط .
(٩٤) وفيات الأعيان (٥/٣٣٧) .
(٩٥) العقد الفريد (٤/٣٥) و (٤ /٤٨) وانظر عيون الأخبار (١/٢٩١) .

« هؤلاء جبابرة ، ولا احب مثلهم (٩٦) ، فكان يزيد وهو رئيس اهل بيته : جبار الجبابرة .

ز . أما علمه ، فقد روى عن انس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وابيه المهلب ، وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأخوه ابو عُيَيْنَة بن المهلب وابو اسحق السَّبِيْعِيّ وغيرهم (٩٨) ، وكان فصيحاً بليغاً قليل اللحن ، ومن أقواله في البيان : « أكْرَهُ أن يكون عقلُ الرجل على طرف لسانه » ، يريد انلايكون عقله إلا في الكلام (٩٩) الذي يتّسم بالفصاحة والبيان .

تلك ماليزيد وما عليه من السجايا والاضداد ، وكفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه .

هُوِيّته الشخصيّة :

ذكرنا أباه وأمه في نسبه وأيامه الأولى ، وقد ولد المهلب نحو ثلاثمائة ولد ، أعقب منهم تسعة عشر ، واعقابهم بالبصرة وبغيرها ، وهم : المُغيرة ، ويزيد ، ومَرْوان ، ومُعَاوية ، وزياد ، وعبد الملك ، وحبيب ، ومحمد ، وقَبِيْصَة ، والمُفَضَّل ، والمدْرِك ، وأبوعُيَيْنَة ، وعبدالعزيز ، وعبدالله ، وسعيد ، وشَبِيْب ، وعمرو ، وجعفر ، والحجاج .

ومن ولد يزيد : معاوية . والمهلب ولي فِلَسْطِيْن ، وعمرو وحبيب ومحمّد ، ومَخْلَد . وخالد ، وعبد الرحمن ثار بفارس (١٠٠) .

ونعرف من زوجاته : عاتِكة بنت الفرات بن معاوية العامريّة من بني البكّاء (١٠١) ، ومن جواريه التي أصبحت أمّ ولد : بَهْلَة الهنديّة ، وهي أمّ

---

(٩٦) الطبري (٥٥٧/٦) .
(٩٧) اسمه : عمرو بن عبدالله ، من السبيع ، انظر طبقات خليفة بن خياط (١٦٢) .
(٩٨) وفيات الأعيان (٣٢٣/٥) .
(٩٩) عيون الأخبار (١٦٨/٢) .
(١٠٠) أنساب العرب (٣٦٨) .
(١٠١) الطبري (٥٦٤/٦) والمحبر (٤٤٣) .

المُفَضَّل وعبد الملك (١٠٢) .

وقد ذكرنا أنّه ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرية (٦٧٢ م) ، وقُتل سنة اثنتين ومئة الهجريّة (١٠٣) (٧٢٠ م) ، وأُرسل رأسه إلى يزيد بن عبد الملك (١٠٤) ،

لقد عاش تسعاً وأربعين سنة قمرية ، وثمانٍ وأربعين سنة شمسية ، ولكنه ملأ صفحات من التاريخ أكثر من سِنِيّ حياته عَدَداً ، فكانت حياته عامرة بالنشاط الزاخر إدارياً وقائداً وسجيناً ، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه بجهوده وجهاده محسناً مرّات وغير محسن مرّة . فلم يبق كغيره من الولاة والقادة مُجَرّد عادد في السجل لا أثر له ولا تأثير في الناس حيّاً ، لأنه كان موظفاً حسب يتّبع ولا يَبْتَدع ، ومصيره موظفاً أهم بالنسبة إليه من مصائر الناس . ثم ما كادت وظيفته تزول عنه إلاّ أصبحت حياته تافهة كأنه مَيْت قبل أن يموت . فاذا مات لم يترك أثراً ولا تأثيرا ! !

لقد كان يزيد . . . . رجلا . . .

في رثائه :

ورثاه الشعراء بعد موته ، بل أقرّ الخليفة الذي قتله بفضله ، فقال ثابت قُطْنَةَ (١٠٥)

ألا يا هِنْدُ طالَ عليَّ ليلي
وعاد قصيرُه ليلاً تماما

---

(١٠٢) الطبري (٣٩٥/٦) .

(١٠٣) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٢/١) والنجوم الزاهرة (٢٤٨/١) والعبر (١٢٤/١) .

(١٠٤) البدء والتاريخ (٤٨/٦) .

(١٠٥) هو ثابت بن كعب بن جابر العَتَكِيّ الأزدي ، اصيبت عينه بخراسان ، فجعل عليها قطنة ، فعرف بذلك ، انظر وفيات الأعيان (٣٥١/٥) .

كأنّي حين حلّقت الثريّا
سُقيتُ لُعابَ أسودَ أو سَماما
أمرّ عليّ حلوَ العيش يومٌ
من الأيام شيّبني غلاما
مصابُ بني أبيكِ وغبتُ عنهم
فلم أشهدهمُ ومضوا كِراما
فلا واللهِ لا أنسى يزيداً
ولا القتلى التي قُتِلت حَراما
فعلّي أن أبوء بأخيك يوماً
يزيداً أو أبوءَ به هشاما
وعلّي أنْ أقودَ الخيلَ شُعثاً
شوازِبَ(١٠٦)ضُمّراً تقِصُ(١٠٧)الأكاما
فأُصبِحَهُنَّ حِمْير من قريب
وعكّاً أو أرُعْ بهما جُذاما
ونَسقِي مَذْحَجاً والحيَّ كَلْباً
من الذّيفان (١٠٨) أنفاساً قِواما
عشائرنا التي تبغي علينا
تَجرّبنا زَكا عاماً فعاما

(١٠٦) شَزَبَ الحيوان ــ شَزْوباً : ضَمَرَ ، فهو شازِب . (ج) شُزّبٌ ، وهي شازِبَة (ج) . شَوازِب .
(١٠٧) تقص فرسه : تثب به وثباً قصير الخطى .
(١٠٨) الذيفان : السريع ، وصارم قاطع .

ولـولاهـمْ ومـا جَـلَـبُـوا علينا
لأَصبح وَسْطُنـا مَلِـكاً هُـمَامَا

وقال أيضاً يرثي يزيد :

أبىَ طُـولُ هذا اللَّيْـل أن يتَـصرَّما
وهاجَ لكَ الهَـمُّ الفـؤادَ المُـتَيَّـما
أرِقْـتُ ولَمْ تَأْرَق معي أمُّ خالد
وقد أرِقَّتْ عيناي حَوْلاً مُجرَّما (١٠٩)
على هَالِكٍ هَدَّ العشيرةَ فَقْدُهُ
دعته المنايا فاستجاب وَسَلَّمَـا
على مَلِكٍ ياصَاح بالعَقْرِ (١١٠) جُبِّنَتْ
كتائبُـه واسْتَوْرَدَ الموتَ مُعْلِما
أُصِيْبَ ولم أَشْهَدْ ولـو كنتُ شاهـداً
تسلَّيْـتُ إن لم يجْمَع الحيُّ مأتما
وفي غِيَرِ الأيَـام ياهِـنْـدُ فاعلمي
لطالِـبِ وِتْرٍ نظرة أن تلوّما
فَعَلِّيَ إنْ مالتْ بيَ الريح مَيْلَـةً
على ابن أبي ذِبَّانَ (١١١) أنْ يتندّما
أمَسْلَمُ (١١٢) إن يقْدِرْ عليك رِماحُنا
نُذِقْك بها قَيءَ الأَساود مسلما

---

(١٠٩) تجرّم : تَم وانقضى ، يقال : تجرّمت السنة ، وتجرّم الليل .

(١١٠) العقر : اسم مكان مر ذكره ، وهو مكان المعركة التي دارت بين يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبدالملك .

(١١١) أبو ذبان ، أو أبو الذبان : لقب عبدالملك بن مروان ، وابن أبى ذبان هو : يزيد بن عبدالملك .

(١١٢) مَسْلَم : يريد به مسلمة بن عبدالملك . قائد جيش يزيد بن عبدالملك الذي قاتل به جيش يزيد بن المهلّب وانتصر عليه .

وإن تَلْقَ َللعباس (١١٣) في الدّهر عثرة
نكافِئْه باليوم الذي كان قَدّما
قصاصاً ولا نَعدو الذي كان قد أَتى
إلينا وإن كان ابن مروانَ أظلَما
ستعلمُ إنْ زَلَّتْ بك النَعْل زلَّةً
وأظهر أقوامٌ حياءً مجَمْجِما (١١٤)
مَن الظَالم الجَاني على أهِل بيته
إذا احْصِرَت (١١٥) أسباب أمرٍ وأبْهَمَا
وإنّا لعَطّافون بالحلم بعدما
نَرى الجهّلَ من فرط اللّئيم تكرُّما
وإنّا لحلاّلونَ بالثَّغْر لا نرى
به ساكناً إلاّ الخميْس (١١٦) العَرَمْرَما
نرى أَنَّ للجيْرانِ حَاجاً وحُرْمةً
إذا النّاس لم يَرْعَوْا لدى الجار محرْمَا
وإنا لنقرى الضيفَ من قَمع الذّرى
إذا كانَ رفدُ الرافدين تَجَشّما

(١١٣) العباس : العباس بن الوليد بن عبدالملك ، كان مَسلمة بن عبدالملك في قيادة الجيش الذي قاتل يزيد بن المهلّب .

(١١٤) جمجم فلان : لم يبّين كلامَه . وجمجم الشيءَ في صدره : اخفاه ولم يُبْدِه .

(١١٥) في ابن الأثير (٥/٨٨) : احضرت .

(١١٦) الخميس : الجيش التجرار .

وراحت بصُرَّادٍ (١١٧) مُلِثّ (١١٨) جليدُه
على الطَلْح (١١٩) أرماكا(١٢٠) من الشُّهب صُيَّما
أبونا أبو الأنصار عمرو بن عامرٍ (١٢١)
وهم وَلدُوا عَوْفاً وكَعْباً وأسلما
وقد كان في غَسَّانَ مَجْدٌ يَعُدُّه
وعَادِيَّةٌ كانت من المجد مُعظَما (١٢٢)

ولما حُمِل رأس يزيد بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك في الشام ، نال منه بعض جلسائه ، فقال له : إنّ يزيد طاب جسيماً ، وركب عظيماً ، ومات كريما (١٢٣) ، وحسبى بشهادة أعدى أعداء يزيد ، فقال النّاس : « ضحىّ بنو أُميّة بالكرم يوم (العَقْر) » (١٢٤) ، يريدون بذلك قتل يزيد ، فقد كان من النجباء الكرماء العظماء الفُرْسان (١٢٥) .

ولم يمض يزيد وحده إلى جوار ربّه ، بل مضى معه كثير من آل بيته من المهالبة في مجزرة مروّعة حصدتهم حصدا ، وحتى فتية المهالبة الأحداث التسعة الذين بعث بهمْ مَسْلَمة بن عبد الملك إلى يزيد بن عبد الملك أمر يزيد بقتلهم ، فقتلوا وبقى منهم غلام صغير ، فقال : « اقتلوني فما أنا بصغير » ، فقال يزيد : « انظروا أنْبَتَ ! » ، فقال : « أنا أعلم بنفسي ، قد احتلمتُ

(١١٧) الصراد : الريح الباردة تخالطها رطوبة .
(١١٨) لث بالمكان : أقام . ولث المطر : دامَ أياماً لاينقلع .
(١١٩) الطلح : شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الأبل ، والطلح جمع طَلْحَة
(١٢٠) ارماك : جمع الرمكة : الضعيف . والرامك : المقيم بالمكان لايبرح ، جمعها ارماك .
(١٢١) عمرو بن عامر بن لحى ابو الأوس والخزرج من الانصار .
(١٢٢) الطبري (٦/٦٠٣ – ٦٠٤) وانظر ابن الاثير (٥/٨٧ – ٨٨) .
(١٢٣) وفيات الاعيان (٥/٣٥٠) .
(١٢٤) وفيات الاعيان (٥/٣٥١) .
(١٢٥) وفيات الاعيان (٥/٣٥٢) .

ووطئتُ النساء » ، فأمر به يزيد فقتل (١٢٦).

لقد كان يزيد رجلاً قد لا يتكرر أبدا .

القائد

١ ـ صفاته القيادية :

أ . قبل أن يُقْتَل يزيد ، وبعد أن هرب أكثر أصحابه من حوله ، وأخذ منْ يكره القتال ينكص ، وتسلّل الباقون معه أفراداً وجماعات ، جاءه أحد المقربين إليه يقول له : « أما ترى ماحولك من جبال الحديد ! » فقال له : « أما أنا فما أباليها ، جبال حديد كانت أم جبال نار ! » ثم مضى يقاتل وهو ينشد قول الأعشى :

أبا الموتِ خَشَّتني عُبَادٌ وإنَّما
رأيتُ مَنَايَا النّاسِ يَشْقَى ذَليلُها
فما مِيتَةٌ إن مُتُّها غيرَ عاجزٍ
بِعَارٍ إذا ما غالَتِ النفسَ غُولُها

وأقبل يزيد نحو مَسْلَمَة بن عبد الملك مستقتلاً لا يريد غيره ، حتى إذا دَنَا منه قرّب مَسْلَمَة فرسَه ليركب ، فعطف عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه وحملوا بأجمعهم .

واقتتلوا ساعة ، وسطع الغُبار ، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلا (١٢٧) ، وهكذا انتصر التفوّق العَددِيَ والعُدَدِيّ على الشّجاعة والاقدام ، فمات يزيد كريماً مُقْبلاً غير مُدْبر ، مُسْتَقتلاً غير متخاذل ، فصدق ثابت قُطنة في وصف مقتله :

(١٢٦) الطبري (٦٠٣/٦) وابن الاثير (٨٧/٥) .
(١٢٧) الطبري (٥٩٦/٦ ـ ٥٩٧) .

إنْ يَقْتُلوكَ فانّ قتلك لم يكُـنْ

عاراً عليك ، وربَّ قَتْلٍ عارُ (١٢٨)

لقد كان يزيد يستنكر الهرب من القتال ، ويرفض أيّ حجّة يعرضها الهارب ، وكان شعاره في كلٍّ حياته : النّصر أو الموت .

وطالما اندفع في المعارك التي خاضها إلى الأمام ، فأصبح في الصفوف الأمامية ملتحماً بالذين يقاتلهم ، فلا يكون أحدٌ من رجاله أقربَ إلى العدو منه ، فهو قائد يقود رجاله من (الأمام) ، يقول لأصحابه : اتبعوني ، ولا يبقى في (الخلف) مُسْتَكِناً في موضع أمين ، يقول لأصحابه : تقدّموا ، وهو قابع في موضعه الأمين لايتقدَّم !

والذين يُقاتِلون في الصفوف الأمامية من القادة يضربون لرجالهم أروع الامثال ، إذ يكونون أسوة حسنة لرجالهم وقدوة صالحة ومثالاً يُحتذى به ، فيبعثون في نفوس رجالهم النّخوة والاقدام والتضحية والفداء .

وقلّما يُهزم الجيش يقاتل قائده في الصفوف الأمامية ويقوده من الامام .

ومن المعروف أن القادة العسكريين قسمان : قسم يقود رجاله من الامام من امثال خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني ويزيد بن المهلب وكثير من قادة الفتح الآخرين ، وقسم يقوده رجاله من الخلف ؛ ومن النادر أن يثق الجيش بقائد يقوده من الخلف ، فالمقاتل ترتفع معنوياته اذا رأى بعينيه قائده وبخاصة في الاوقات الصعبة في حالة التماس بالعدو .

ولكن القائد الذي يكون في الصفوف الامامية في اثناء الاشتباك بالعدو لابد ان يكون متميزاً بالشجاعة الفائقة ، وهذا ماكان يتميز به يزيد ، وقد تحدثنا عن شجاعته عند الحديث على سماته إنساناً ، إذ لاخلاف في شجاعة

(١٢٨) وفيات الاعيان (٣٥١/٥) .

يزيد التي كانت من طراز فريد وكانت مضرب الامثال .

ب . لقد كان يزيد من هواة الحرب لامن اجل الحرب ، ولكن لتنفيذ خطط مرسومة للدولة في الفتح او استعادة الفتح وفي توطيد الأمن الداخلي واعادة الاستقرار والنظام وقمع الفتن ، والمعركة الواحدة التي خاضها لحسابه الخاص هي معركة (العقر) التي خسر فيها حياته ،ولم يخض تلك الحرب من أجل الحرب وحباً لاراقة الدماء ، ولكنه خاضها مُكْرهاً لا بطلاً ، فقد بقي في سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دون أن يهرب ، وكان بمقدوره أن يفعل . فلما اصبحت حياة عمر مهددة بالموت هرب يزيد خوفاً من انتقام يزيد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز لعداوة قديمة بين اليزيدين : يزيد بن عبد الملك ، ويزيد بن المهلب فهربه في الواقع كان دفاعاً عن النفس لاحباً في اشعال نيران الحرب .

والدليل القاطع على أنّه من هواة الحرب ، هو قضاؤه معظم أوقات ولايته غازياً لاجابيا ، فكان يؤثر مصاولة الأبطال وتحمل الاخطار والمشاق على الراحة في القصور بعيداً عن الأخطار والتعب والمشقة .

كما كانت حياته في أيام ابيه كلها في ميدان القتال ، محارباً الخوارج تارة ، وفاتحاً تارة اخرى ، ولم يبق مستقراً في مكان مريح أمين .

كما ان تميزه بالشجاعة الخارقة ، بالاضافة الى هوايته المفضلة للحرب ، دليل على انه من اصحاب الطبع الموهوب في القيادة

اما مزية التجربة العلمية التي يجب ان يتميز بها القائد الحق ، بالاضافة إلى الطبع الموهوب والعلم المكتسب ، فان أعمال يزيد العسكرية في القتال فاتحاً أو مستعيداً للفتح ، وفي القتال للقضاء على الفتن الداخلية غير دليل على تمتّعه بهذه الميزة الحيوية .

فقد كان أبوه المهلب خير استاذ له في التطبيق العملي لعلومه العسكرية

المكتسبة والتجربة العملية في القتال والاقتتال ، فما كان في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبية للحرب ولاأغشى للناس من المهلب في ايامه ، فتعلم يزيد من ابيه ممارسة الحرب وادارتها مما أثرى علمه المكتسب وتجربته العملية ، فتولى القيادة بامرة أبيه المهلب واستعاد فتح قسم من البلاد التي انتقضت ، وما كان المهلب ليولي يزيد قيادة الجيوش لانه ابنه حسب ، فلا أحد يولي ولده قيادة عسكرية دون كفاية عالية ، لأنه بدونها يعرضه للمهالك وأفدح الاخطار .

وقد كان للمهلب كثير من الابناء . فما ولاهم جميعاً قيادات عسكرية ، بل ولى قسماً منهم فقط وعلى رأسهم ابنه يزيد ، مما يدل على اقتناع المهلب بأن يزيد استكمل علمه المكتسب وتجربته العملية فأصبح مصدراً من مصادر قوة أبيه اولاً قبل غيره من الناس ومصدر قوة للدولة التي يعمل المهلب وبنوه في خدمتها والدفاع عن مصالحها بأمانة وقوة وإخلاص .

نستنتج مما ذكرناه ، أنّ يزيد تيسرت له مزايا القائد المميز الثلاث : العلم المكتسب . والتجربة العملية . وقبل هاتين المزيتين الطبع الموهوب .

ج . فكيف استعمل يزيد مزاياه القيادية المتميزة الثلاث في التطبيق العملي قائداً . وبخاصة . في التطبيق العملي لمبادئ الحرب .

يبدو أنه اهتم كثيراً بمبدأين حيويين من مبادئ الحرب . الأمن ، والمباغتة وهما أهم مبادئ الحرب على الاطلاق .

وليس معنى هذا أنه لم يهتم بمبادئ الحرب الاخرى ، بالعكس ، فان اهتمامه بها كان عظيماً كما سنرى . ولكن أسبقية اهتمامه تركّزت على هذين المبدأين بالدرجة الأولى وبصورة خاصة ، دون أن ينسى المبادئ الباقية عامة أو يغض النظر عنها طرفة عين .

ففي مجال تطبيق ، مبدأ الأمن . سيطر سيطرة كاملة على قاعدة الفتح واستعادة الفتح المتقدمة (مَرْو) ، وطهرها من أعداء الدولة . وخلّف عليها

ابنه مَخْلَد ، وهو ألمع أبنائه وأكثرهم كفاية ، ثم انطلق فاتحاً ومستعيداً للفتح (١٢٩) ، وبهذا جعل قاعدته المتقدمة امينة رصينة لايخشى عليها خطراً .

وكان يدأب على : الاستطلاع الشخصي قائداً لسرية قتالية ، كما فعل في حصار قُهِسْتان ، فقد خرج ينظر مكاناً يدخل منه الى المدينة المحاصرة في اربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم ، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في أربعة آلاف ، فقاتلوهم ساعة حتى رجع عنهم العدو خائباً (١٣٠) .

وهذا الاسلوب من الاستطلاع ، وهو لغرض الحصول على المعلومات عن العدو بالقتال ، وهو أسلوب من اساليب تحقيق مبدأ : الأمن ، إضافة إلى فوائده الأخرى .

كما أنه وضع (العيون) على (نيزك) لرصد حركاته ، فلما استيقن خروجه من قلعته ، تحرك يزيد لفتح القلعة الحصينة التي استعصت على الفاتحين (١٣١) وهذا الأسلوب من الأساليب الاستطلاعية التي تحقق مبدأ : الامن ، ايضاً .

وكان يزيد لا يُغْفِل اتخاذ تدابير الحماية لجيشه ، فيرسل المقدمات والجنبات والمؤخرات ، لحماية جيشه من المباغتة ولحرمان عدوه من الحصول على المعلومات الضرورية عن هذا الجيش ، فلا عجب ألاّ تُباغت قوّات يزيد التي تعمل بقيادته من العدو أبداً .

ولعل من أهم عوامل تحقيق مبدأ الأمن ، بالنسبة للجيش الذي يتغلغل بالعمق بعيداً في البلاد المعادية وهو وضع حاميات في المراكز المهمة وهذا ما فعله يزيد في معاركه التي خاضها لاستعداد فتح جُرْجان وطَبرِستان ، فقد خلّف حاميتين تَعْداد كلّ حامية أربعة آلاف مقاتل على طريق مواصلاته ،

(١٢٩) الطبري (٥٣٢/٦) .
(١٣٠) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٣٢/٦ — ٥٣٩) و (٢٧١/٤) وابن الاثير (٣٠/٢٩/٤) وابن خلدون (١٠١٩/٢) .
(١٣١) الطبري (٣٨٦/٦) وابن الاثير (٤٩٨/٤ — ٤٩٩) .

لحماية خطوط تلك المواصلات (١٣٢) .

ولا أعرف أسلوباً من أساليب تحقيق مبدأ الامن ، إلاّ اتّخذه يزيد في حروبه بِكلّ حرص و كفاية وبموجب خطة عسكرية مدّبرة مدروسة ، فقد كان الرجل لايرتجل الخطط وبعيداً غاية البعد عن الارتجال .

ونعود إلى تطبيق مبدأ المباغتة ، فقد استطاع يزيد تطويق قلعة نيزك الحصينة في وقت كان فيه نيزك بعيداً عن قلعته (١٣٣) ، مما أجبر نيزك على الصّلح فكانت عملية يزيد هذه مباغتة كاملة لنيزك في الزمان ، لأن يزيد طوق قلعته في وقت لايتوقعه نيزك .

وقد كتب يزيد ال الأصبهبذ في طَبرِستان كتاباً يسأله فيه ان يحتال لِصُوْل حتى يقيم بجُرجان ، وهو يعلم ان كتابه سيّطلع عليه صُوْل بشكل أو آخر ، فيتحول عن جُرجان وينزل البُحيرة ، فيهاجم يزيد حنيذاك جُرجان ويستعيد فتحها بدون مقاومة تذكر .

فاذا تمّ له استعادة فتح جُرجان ، أصبح محاصرة البحيرة وفيها صُوْل ميسوراً ومضمون النتيجة .

وهذا ما طبقه يزيد فعلاً ، فاستعاد فتح جرجان وانتصر على صُول في البحيرة (١٣٤) ، وبذلك حقق مباغتة صُوْل بالزمان أيضاً .

وفي حصار جُرجان بعد ان نقضت وغدرت بحاميتها الاسلاميّة ، استطاع أحد رجاله أن يكشف طريقاً جديداً يؤدي اليها مباشرة ، فأعدّ خطة للهجوم على العدو المحاصر من اتجاه تلك الطريق وبالهجوم عليه من الجبهة (١٣٥) ،

(١٣٢) الطبري (٦/٥٣٩) وابن الاثير (٥/٣) .
(١٣٣) الطبري (٦/٣٨٧) وابن الاثير (٤/٤٩٩) .
(١٣٤) انظر التفاصيل فى الطبري (٦/٥٣٨ ـ ٥٣٩) وابن الاثير (٥/٣٢ ـ ٣٣) .
(١٣٥) انظر التفاصيل فى الطبري (٦/٥٤١ ٥٤٣ وابن الاثير (٥/٣٤ ـ ٣٥) .

فاستطاع استعادة فتح جُرجان ثانية بعد حصار مديد ، وحقق مباغتة عدوّه بالزمان والمكان معاً .

كما أنّ إعداد تلك الخُطّة وتوقيت تنفيذها الدقيق ، يمكن اعتباره مباغتة بالاسلوب أيضاً ، ومن المعلوم ان تطبيق مبدأ المباغتة ، يتمّ في المكان ، اي من مكان لايتوقعه العدو ، وفي الزمان ، اي في زمان لا يتوقعه العدو ، أو بالأسلوب ، أي بأسلوب تعبوي لايتوقعه الخصْم .

وقد حقق يزيد هذه الاساليب الثلاثة في تطبيق مبدأ : المباغتة .

ويبقى أسلوب رابع في تطبيق مبدأ : المباغتة ، هو استخدام سلاح جديد متفوق لايتوقع العدو استخدامه . وهذا الاسلوب لم يطبق من سائر قادة عصر يزيد العرب المسلمين ، لانهم لم يستطيعوا ابتكار سلاح جديد متفوق في حينه .

ج : ذلك مبلغ اهتمام يزيد بتطبيق مبدأي : الأمن والمباغتة .

د : ولكن يزيد لم يهمل بقية مبادىء الحرب الأخرى كما ذكرنا .

فقد كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وادامته ، ولا اعرف قائداً اختار مقصده منذ كان (لاجئاً) في كنف سليمان بن عبد الملك ، ونفذه حرفياً دون تردد بعد ان تولى خراسان حين اصبح سليمان الذي كان ولياً للعهد خليفة ، وبين اختيار يزيد مقصده وبين تنفيذه بضع سنوات !

فحين كان يزيد عند سليمان بن عبد الملك بعد هربه من سجن الحجّاج كان سليمان كلمـا فتح قُتَيْبَة بن مسلم فتحاً يقول ليزيد ؛ « ألا ترى الى مايفتح الله على قُتَيْبَة ؟ » فيقول يزيد : « ما فعلتْ جُرجان التي قطعت الطريق وأفسدت (قُومِس) و (نَيْسابور) ؟ هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأن هي جُرجان ! » .

ونفذ يزيد ما وعد ، وكان هدفه واضحاً جلياً منذ امد بعيد ، والفرق بينه وبين كثيرين غيره ، أنهم يعدون ويخلفون ، ووعودهم هي لتولى المناصب

أما يزيد ، فلم ينس وعده ، وبادر الى تحقيقه ، وتحمّل الأهوال من أجله محتسباً . وكان يطبق مبدأ . التعَرُّض ، وكانت حروبه لها تعرُّضيّه ، ولم يتّخذ خُطّة الدّفاع طيلة حياته العسكرية . جندياً أو قائداً ، مرؤوساً أو قائداً عاماً .

وكان يطبق مبدأ : حَشْد القوّة ، فقد حشد قوات ضاربة قادرة على الفتح واستعادة الفتح واحراز النصر ، فحشد في جيشه اهل الشام واهل البصرة واهل الكوفة ووجوه أهل خراسان والرّي في مئة الف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين (١٣٦) وذلك قبل أن يسير إلى جرجان وطَبِرستان .

وهذا مجرّد مثال واحد على احتفال يزيد الباهر في تطبيق مبدأ . حشد القوة وكان يطبّق مبدأ . الاقتصاد في المجهود ، فقد كان يستخدم القوات المناسبة لتحقيق الهدف المناسب . ولم يُعرف عنه أنه بذّر في المجهود أو استهتر بارواح أصحابه دون مسوّغ .

وكان يطبّق مبدأ . المرونة ، تطبيقاً رائعاً حقاً ، فلما ساءت احوال قواته في جُرجان ، لم يصرّ على تنفيذ خطته العسكرية المرسومة في القضاء على الأصبهبذ في طَبَرِسْتان ، لأنّه اقتنع أنّ القوة وحدها لاتحقق له هدفه في استعادة الفتح فلجأ الى المفاوضات السياسية ، وأوفد حَيّان النَّبطي إلى حاكم طبرستان ، فعقد معه صلحاً وضع حـداً للحرب الدائرة بين الجانبين إلى حين (١٣٧) .

ومن هذه العملية السياسية التي نفذها يزيد بنجاح ، نستنتج أن القوة وحدها قد تعجز عن تحقيق كثير من الأهداف . وأنّ السياسة قد تنجح في تحقيق أهداف عجزت القوّة العسكرية عن تحقيقها . وأنّ القوة لايمكن أن تستغني عن السياسة . كما أنّ السياسة لايمكن أن تستغني عن القوة ، والقائد الحصيف

(١٣٦) الطبري (٥٣٢/٦) .

(١٣٧) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٣٩/٦ ــ ٥٤١) وابن الاثير (٣٠/٥ ــ ٣٢) .

هو الذي يحقق التوازن بين السياسة من جهة وبين القوة من جهة أخرى .

ولكن يزيد لم يكن مرناً في المناورة أثناء القتال ، فهو اما أن ينتصر أو يموت ، أما أن ينحاز الى فئة أو ينسحب ، فلا .

وكان يطبق مبدأ : التعاون ، فقد كان ينسق التعاون بين أجناد الأمصار كما ذكرنا في تطبيق مبدأ الحشد ، فقد تعاون أجناد الكوفة وأجناد البصرة وأجناد الشام وأجناد خُراسان وأجناد الرّيّ ، وكان التعاون بين جميع هذه الاجناد وثيقاً فعملت بقيادة واحدة لتحقيق أهداف موحدة ، كما أنّ يزيد طبق هذا المبدأ في الحرب ، فجرى التنسيق بين قوات الهجوم الجبهوى وقوات الهجوم من الخلف ، فانتصر المسلمون في تلك المعركة على عدوّهم .

وكان يطبق مبدأ : إدامة المعنويات ، وقد ذكرنا قصّة كتاب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك يبشّره بالنصر وبضخامة الغنائم في استعادة فتح جُرجان فأخذنا على يزيد مبالغته في هذه الرسالة ، ولكنه أراد بهذه المبالغة أن يتسامع بها رجاله بخاصة والمسلمون بعامة من أجل رفع معنوياتهم وإدامة مستواها الرفيع

وقد كان يكثر من مواجهة قوّاته بخطبه وأحاديثه ، لرفع المعنويات وإدامتها ، وكان يبادر إلى معالجة أي انهيار معنويّ فوراً ولا يفسح المجال أبداً لانهيار المعنويات .

وكان يطبق مبدأ الأمور الادارية ، فقد كان أسلوب توزيع الأرزاق على أفراد قواته بعد انتصاره في معركة البُحيرة متميزاً للغاية وعملياً وناجحاً . وكانت المسؤولية في جمع الغنائم وتوزيعها واضحة للغاية ، وكانت الرقابة على أموال الدولة صارمة بحيث لم يغب عنه ولا عن قواته تصرّف المسؤول عن مخازن الغنائم بخريطة تافهة الثمن والقيمة ، فأعيدت إلى المخازن ، ونال الذي تصرف بها اللوم والتأنيب ١٣٩) .

---

(١٣٨) الطبري (٥٤٤/٦ ــ ٥٤٥) وانظر ابن الاثير (٣٥/٥ ــ ٣٦) .

(١٣٩) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٨/٦ ــ ٥٣٩) وابن الاثير (٣٢/٥ ــ ٣٣) .

وكان يغدق على رجاله إغداقاً بلغ حدّ الاسراف ، ولما هرب من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ودخل البَصْرَة ، أخذ يعطي مَنْ أتاه قطع الذّهب والفِضّة ، فمال الناس اليه (١٤٠) . وكان في كل حياته العامة والخاصة كريماً معطاءً لايقصّر في العطاء ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

وكان يتدخل بتفاصيل القضايا الادارية ، لأنه يعرف أهميتها القصوى وكمثال على ذلك اتخاذه (الفعلة) ، وهم سلاح الهندسة كما نسميه في المصطلحات العسكرية الحديثة ، يقطعون الشّجر ، ويصلحون الطرق (١٤١) .

وكما كان يهتمّ بتأمين القضايا الادارية لاصحابه ، كان يحول دون وصولها الى عدوّه ، ففي حصار دِهسْتان : ألح عليها وأنزل الجنود من كل مكان حولها ، وقطع عنهم المواد ، فلما جُهِدوا أوعجزوا عن قتال المسلمين ، واشتدّ عليهم الحصار والبلاء، بعث صُول دِهْقان دِهْستان الى يزيد : «اني أصالحك على أن تؤمنني على نفسي وأهل بيتي ومالي . . . » (١٤٢) .

وكانت وسيلة يزيد لحرمان العدو من القضايا الادارية ، فرض الحصار على المدن والحصون التي يستعصى عليه فتحها ، وما فرضُ الحصار إلاّ معركة يربحها منْ يحرم العدو من المواد الغذائية وغيرها من القضايا الادارية ، ويؤمن في نفس الوقت القضايا الادارية لرجاله .

وما دمنا قد تطرقنا الى فرض الحصار ، فقد مارس يزيد في حرب جُرجان وطبرسْتان هذا الأسلوب التعبوي مرتين : مرة في حصار منطقة البحيرة حصاراً مديداً لمدة ستة شهور (١٤٣) ، ومرة في حصار مديد لمدة سبعة شهور(١٤٤) وانتصر في الحصارين على عدوه .

(١٤٠) الطبري (٥٨٠/٦) وابن الأثير (٧٢/٥) .
(١٤١) الطبري (٥٣٤/٦) .
(١٤٢) الطبري (٥٣٤/٦) .
(١٤٣) ابن الأثير (٣٣/٥) وهى منطقة دهستان .
(١٤٤) الطبري (٥٤٢/٦) .

ونهوض يزيد بهذين الحصارين المديدين ، يكذب مزاعم أعداء العرب من مستشرقين ومستغربين بأنّ العرب لايصبرون على حصار طويل .

وانتصار يزيد في هذين الحصارين المديدين على أعدائه ، دليل قاطع على اهتمامه بالقضاية الادأرية اهتماماً كبيراً قاده الى النصر ، فلا نصر لقائد في حصار مديد لايؤمن القضايا الادارية لقواته بشكل متميز قدير ، ويحرم عدوّه منها بشكل صارم شديد .

ه : لقد كان يزيد ذكياً حاضر البديهة ، لذلك كانت قراراته سريعة وصحيحة ، وبالرغم من شجاعته الخارقة ، « فكان أصحابه يقولون له : « انصرف ونحن نقاتل عنك ، فأبى ان يفعل ، وغَشَى القتال يومئذٍ بنفسه ، وكان كأحدهم » ، الا أنه لم يكن متهوراً ، إذ لم يكن يفقد أعصابه ، في ساعة القتال ، ويُعدّ لكل أمر عدّته لانقاذ رجاله وإحراز النصر (١٤٥) .

وكان يزيد يتمتع بارادة قوية ثابتة ، اذا اقتنع بأمر نفّذهُ ، لأنه كان شجاعاً لا يهاب الموت ولا يخشى أحدا .

وكانت نفسيته لاتتبدل في حالتي النصر والهزيمة ، فلا يتجبر في حالة النصر ، ولا يذل في حالة الهزيمة ، فهو ثابت النفس صلب العود ، يثق ثقة مطلقة بالقضاء والقدر .

وبلغ من قوّة شخصية يزيد ، أنه كان يتحدى الحجّاج الذي لايُتحدّى ، فقد أطلق الأسرى من عشيرته ومَن له فضل عليه أو على أهله ، ثم بعث بالباقين الى الحجاج لينفّذ فيهم حكم الموت (١٤٧) .

وكتب الحجاج الى يزيد : « أنْ أغز خُوارزْم » ، فكتب اليه :

(١٤٥) الطبري (٥٣٣/٦ - ٥٣٤) .
(١٤٦) الطبري (٥٣٤/٦) وابن الأثير (٣٠/٥) .
(١٤٧) الطبري (١٦/ ٣٨٠) .

« أيها ألامير ! إنها قليلة السلب ، شديدة الكَلَب » ، فكتب اليه الحجاج : «لاتَغزُها ، فانها كما وصفت » . فغزا يزيد ولم يُطِعْهُ (١٤٨) .

وكان الحجّاج بعد أن هزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لم يبق له هَمٌّ الا يزيد وأهل بيته ، وقد كان الحجاج أذل أهل العراق كلهم الا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المصرَيْن ، البصرة والكوفة ــ بخُراسان (١٤٩)

لقد كانت شخصية يزيد شخصية فذة ، تملأ الأعين قدرا واجلالا ، وتملأ الأنفس هيبة ووقاراً .

وكان يتمتع بقابلية بدنية سليمة ، فقد مارس الحرب وهو في ريعان الشباب ينازل الابطال ولداته يلعبون في الطرقات ، ومات وهو في أوج قابليته البدنية فسقط قتيلاً في المعركة ولم يسقط السيف من يده .

وكان له ماضٍ ناصع مجيد حسباً ونسباً ، وقديماً وجديداً ، وحتى آخر لحظة في حياته آثر الموت على الحياة في معركة خاسرة معروفة النتائج سلفاً ، على أن يلوث أحسابه أو سيرته بشائبة الهرب .

وقد صدق ثابت قُطْنَة في وصف يزيد قائداً:

إن أمرأً حدبتْ ربيْعة حولَـــه
والحَيُّ من يَمن وهاب كؤودا (١٥٠)

لضعيفُ ماضمَّت جوانحُ صدره
إنْ لم يَلُفَّ الى الجنود جنوداً (١٥١)

أيزيدُ كُنْ في الحَرْب إذ هَيَّجتها
كأبيك لا رعشاً ولا رِعْديداً (١٥٢)

---

(١٤٨) الطبري (٣٩٦/٦) .
(١٤٩) الطبري (٣٩٦/٦ ــ ٣٩٧) .
(١٥٠) الكؤود : المرتقى الصعب .
(١٥١) ماضمت جوانح صدره : كناية عن القلب .
(١٥٢) الرعش والرعديد : الجبان .

شَاوَرْتَ أكرم من تناول ماجداً
فرأيت هَمَّك في الهموم بعيداً
ما كان في أبَوَيْك قادحُ هُجْنَة
فيكون زندك في الزناد صلودا (١٥٣)
إنا لضرّابونَ في حَمَس الوَغَى
رأسَ المتوّج إن أراد صدوداً
وقُرٌ إذا كَفَرَ العجاج ترى لنا
في كل معركة فوارس صيداً (١٥٤)
ياليتَ أسْرتك الذين تغيّبوا
كانوا ليومك في العراق شهُوداً
وترى مواطنهم إذا اختلف القنا
والمشرفيّة يلتظين وقوداً (١٥٥)

فلما قرأ يزيد قصيدة ثابت ، ويزيد في العراق يستعد لحرب مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وثابت في خُراسان وعلم أن يزيد مصممٌ على إحدى الحسنيين : النصر أو الموت ، قال : « إنّ ثابتاً لغافلٌ عما نحن فيه ، ولعمري لأطيعنّه وسيرى مايكون ، فاكتبوا اليه بذلك (١٥٦) .

تلك هي مجمل مزايا يزيد الرئيسة قائداً ، ومزاياه الفرعية أيضا ، وقد كان الرجل مكشوفاً غير معقّد ، يستطيع الدارسون تبيّن شخصيته قائداً

(١٥٣) الهجنة : كون احد الزندين وارياً والآخر صالداً ، وصلد الزند : صوت ولم يور ، فهو صالد وصلود .
(١٥٤) العجاج : الغبار . كفره كفراً بالفتح : ستره وغطاه . والثرى الأرض . وصيد : جمع أصيد ، وهو رافع راسه كبرا .
(١٥٥) القنا : الرماح . والمشرفية : السيوف نسبة الى مشارف الشام .
(١٥٦) الأغاني (١٤/٢٧٧ – ٢٧٨) .

وإدارياً بوضوح ، ومن النادر أن نجد قائداً وإدارياً من الذين لهم صفحات في التاريخ العربي الاسلامي يمتلك شخصية واضحة المعالم غاية الوضوح كما في شخصية يزيد ، فقد عاش الرجل لالنفسه حسب بل للناس جميعاً ، فبقي خالداً في التاريخ بينما مات الذين عملوا لأنفسهم وهم على قيد الحياة .

لقد كان يزيد قائداً فذاً ، قد لا يتكرر مثله إلا نادراً .

٢ ـ اسباب هزيمته

حين عزل الحجّاج يزيد عن خُراسان ، استشار يزيد أحد المقربين اليه من ذوي العقل والحكمة ، وهو حُضَيْن بن المنذر فقال له : « أقِمْ واعتلّ فانّ أمير المؤمنين حسن الرأي فيك ، وإنما أُتيتَ من الحجاج ، فان أقمتَ ولم تعْجل ، رجوت أن يكتب اليه أن يقر يزيد » . قال : « أنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف » (١٥٨) .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) . خاض عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الكِنْدِيّ معركتين كبيرتين في ثورة عارمة على الدولة التي كان الحجّاج يقود جيشها ، فانتصر الحجّاج على ابن الأشعث ، وهرب ابن الأشعث وفلول جيشه إلى سِجِسْتان .

---

(١٥٧) هو حُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلَة بن المُجالد بن اليَثْربيّ ابن الرَّيّان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة ، صاحب راية ربيعة كلها العلى بن أبى طالب رضى الله عنه يوم صفين ، وفيه يقول على رضى الله عنه :

لِمَنْ راية سَوْداء يَخْفقُ ظِلها اذا قيل : قدّمها حُضَيْنُ تقدما

انظر جمهرة انساب العرب (٣١٧) .

(١٥٨) الطبري (٦/٣٩٥) .

ولجأت تلك الفلول إلى (هَراة) بقيادة عبد الرحمن بن العبّاس الهاشمي فخاض يزيد معركة ضد تلك الفلول بعد أن بذل قصارى جهده في دعوته السلميّة دون جدوى .

وكان يزيد من البصرة ، وكان الحجاج قد أذلّ أهل العراق كلهم ألا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل البصرة والكوفة بخراسان (١٥٩) .

وفي عنفوان المعركة التي دارت بين يزيد من جهة والهاشمي من جهة أخرى أراد أحد رجال الهاشمي ، أن يسمع يزيد مايعانيه أهل العراق من الحجاج فقال:

دَعتْ يايزيدَ بن المهلَّب دَعْوَةً
لها جَزَعٌ ثمّ استهلّتْ عُيونُها
ولو يُسْمِعِ الداعي النداءَ أجابَها
بِصُمٍّ القَنَا والبِيْض تلْقَى جفُونها
وقد فَرَّ أشرافُ العِراق وغادروا
بهــا بقَراً للحيْن جُمّاً قُرونُها

وأراد أن يحض يزيد ، فسكت يزيد طويلاً حتى ظن الناس أنّ الشعر قد حركه ، ثم قال لرجل : « نادِ وأسمعهُم ، جَشّموهم ذلك » ، يريد : أنتم كلفتموهم بذلك ، فقال خُلَيد .

لبئس المنادِي ، والمنوّهُ باسمــه
تناديه أبكارُ العراق وعونُــها
يزيد إذا يُـدْعى ليوم حَـفيظَـة
ولا يَـمْـنَـعُ السَّوْآتِ إلاّ حُـصُونُـها
فإني أراه عن قليلٍ بنفسِــــه
يُـدانُ كما قــد كان قَـبْل يَـدينُها

(١٥٩) الطبري (٦/٣٩٦ — ٣٩٧) .

فلا حُرَّةٌ تبكيه لكن نوائحٌ
تُبكي عليه البُقْعَ عنها وجُونها (١٦٠)

وهكذا أراد الشاعر استثارته لعله ينتقض على الحجّاج حميّة لاهل العراق العرب الذين هو منهم ، ولكنه فكر ملياً قبل أن يُجيب ، فلما عاد اليه رشده بعد سكوته الطويل ، لم يستجب إلى إثارة الشاعر العاطفية ، والقى باللوم كله على الثوار الذين اصطلت بنار ثورتهم نساء العراق ورجاله على السواء .

ولمّا ألحّ الحجّاج وألحف على عبد الملك بن مروان في طلب عزل يزيد من خُراسان بحجة انه من الموالين لآل الزبير وأن يزيد وآل المهلب زبيرية كتب اليه عبدالملك : « إني لاأرى نقصاً بآل المهلّب طاعتهم لآل الزبير بل أراه وفاء منهم لهم ، وإنّ وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي » (١٦١) .

لقد كان يزيد رجل دولة ، منضبطاً ملتزماً ، وكان يتحلّى بمزية الضبط المتين ، ولكنه لم يكن إمّعةً يميل حيث تميل الريح ، بل كان له رأيه الذي يعتز به ولا يُخفيه . ولم يكن من أهدافه إعلان الثورة على الدولة ولاخلع الخليفة فقد خدم الدولة والخلفاء خدمة صادقة كل حياته وقاتل أعداءهم في خارج الحدود وداخلها وحقق انتصارات باهرة هو والمهالبة من آل بيته يذكرها التاريخ لهم ما بقي التاريخ .

ولكنه هرب من سجن حلب بعد أن أيقن أن عمر بن عبد العزيز يعاني سكرات الموت . وكتب الى عمر بعد أن أصبح حراً من سجنه : « إني والله لوعلمتُ أنك تبقى ماخرجتُ من محبسي ، ولكني لم آمن يزيد بن عبدالملك (١٦٢) .

وصدق يزيد بن المهلب . فقد كان بينه وبين يزيد بن عبد الملك عداوة

(١٦٠) الطبري (٦/٣٧٢) .
(١٦١) الطبري (٦/٣٩٥) .
(١٦٢) الطبري (٦/٥٦٤) .

مستحكمة ، وكان يخشى أن يعذبه يزيد ويقتله ، فكان انطلاقه من سجنه دفاعاً عن النفس ، وهو دفاع مشروع .

وتطورت الأمور بسرعة بعد وصول يزيد إلى العراق ، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، حتى آلت الأمور إلى ما آلت اليه حرباً ضروساً لم يكن من دعاتها ولكنه اصطلى بنارها ، فاحترق الاخضر واليابس ، ووقع أبلغ الضرر على يزيد وآل بيته .

وسبب اندحاره في تلك الحرب بالرغم من كفايته القيادية ، هو أنّ الاحداث جرفته بقوة وعنف ، فلم يستطع أن يختار مكان المعركة وزمانها ، ويفرض هذا الاختيار فرضاً على قائد جيش الدولة ، وبذلك خسر نصف المعركة قبل أن ينشب الاقتتال .

فقد كتب يزيد بن عبد الملك إلى أمير الكوفة وأمير البصرة يعلمهما بهرب يزيد بن المهلب ويأمرهما أن يتهيأ كلّ منهما لقتاله ، وأن يسجن أميرُ البصرة آل بيت المهلّب .

اما امير الكوفة ، فقد بعث جيشاً لقتال يزيد ، فمرّ يزيد في طريق هربه إلى البصرة بجيش الكوفة . فاتّقى ذلك الجيش الاقدام عليه ، فمضى يزيد إلى سبيله ، وعاد جيش الكوفة إلى الكوفة راضياً بالسّلامة .

وأما أمير البصرة ، فقد جمع اليه أهل البصرة ، وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة قائداً من قادته ، فقال عبد الملك بن المهلب لأمير البصرة : « خُذْ ابني حُمَيداً فاحبسه مكاني ،وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد عن البصرة حتى يأتي فارس ، ويطلب لنفسه الأمان ، ولا يقربك » ، فأبى عليه .

وجاء يزيد ومعه أصحابه الذين أقبل فيهم ، والبصرة محفوفة بالرجال ، وقد جمع محمد بن المهلّب — ولم يكن ممن حُبِسَ — رجالاً وفتية من أهل بيته وناساً من مواليه ، فخرج حتى استقبل يزيد ، فأقبل يزيد في كتيبة تهول من رآها.

وأقبل يزيد لا يمر بخيل من خيول البصرة ولا من قبائلها الا تَنَحَّوْا

له عن طريقه حتى يمضي . واستقبله قائد خيل والي البصرة ، فحمل عليه محمد ابن المهلّب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق هو واصحابه .

ومضى يزيد في طريقه قُدُماً حتى نزل داره ، واختلف الناس اليه .

وبعث يزيد إلى امير البصرة ، أن ادفع إليّ إخوتي الذين سجنتهم ، وأنا أصالحك على البصرة ، وأُخليك وإياها حتى آخذ لنفسي ما أُحبّ من يزيد ابن عبد الملك .

ولكن أمير البصرة رفض عرض يزيد ، فاضطرّ يزيد أن ينقذ إخوته من السجن بالقوة (١٦٣) .

وسُفك الدم بين رجال الدولة ورجال يزيد . فلم يعد هناك أمل بالصلح بين الجانبين .

وكان حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد خرج الى يزيد بن عبد الملك في الشام ، فبعث معه ابن عبد الملك بأمان يزيد وأهل بيته (١٦٤) ، ولكن هذه المساعي السلمية للصلح جاءت متأخرة بعد أن سُفك الدّم . والدّم يعقبة الدّم .

وتكاثر الناس على يزيد في البصرة ، ينضمّون إلى جيشه ، كان يغدق عليهم المال بسخاء . بينما يبخل عليهم أمير البصرة بهذا المال (١٦٥) ، وأكثر الناس عبيد جيوبهم لاسادة قلوبهم .

وخرج يزيد من البصرة ، وخرج معه بالسلاح وبيت المال ، فاقبل حتى نزل مدينة (واسط) ، وهناك استشار أصحابه قائلاً : « هاتوا الرأى ، فانّ أهل الشام قد نهضوا اليكم ! » ، فقال له حبيب بن المهاب ، وقد أشار عليه غير حبيب أيضاً ، فقالوا : نرى أن تخرج وتنزل بفارس ، فتأخذ بالشعاب والعقاب وتدنو من خُراسان ، وتطاول القوم ، فانّ أهل الجبال ينفضّون

(١٦٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ — ٥٨٢) .
(١٦٤) الطبري (٦/٥٨٠) .
(١٦٥) الطبري (٦/٥٨٠ — ٥٨١) .

اليك وفي يديك القلاع والحصون » ، فقال يزيد : « ليس هنا برأي ، ليس يوافقني هذا ، وانما تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل » . فقال حبيب « فان الرأي الذي كان ينبغي أن يكون في أول الامر قد فات : قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة أن توجه خيلاً عليها أهل بيتك حتى ترد الكوفة ، فان اميرها مررت بهفي سبعين رجلاً فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز في العدةفنسبق اليها أهل الشام ، وعظماء أهلها يرون رأيك وان لي عليهم أحب إلى جاهم من أن يلي عليهم أهل الشام ؛ فلم تطعني ! وأنا أشير الآن برأيي : سرح مع أهل بيتك خيلاً من خيلك عظيمة فتأتي الجزيرة — جزيرة ابن عمر — وتبادر اليها حتى ينزلوا حصناً من حصونها ، فاذا أقبل أهل الشام بريدونك لم يدعوا جنداً من جنودك بالجزيرة ، ويقبلون اليك ، فيقيمون عليهم ، فيحبسونهم عنك ، حتى تأتيهم فيأتيك من بالموصل من قومك ، وينفض اليك أهل العراق وأهل الثغور ، وتقاتلهم في ارض رخيصة السعر ، وقد جعلت العراق كله وراء ظهرك ! » ، فقال : « إني اكره ان اقطع جيشي وجندي » (١٦٦) .

ولم يستطيع يزيد أن ينفذ رأياً من هذه الآراء الحصيفة المخلصة ، لأن الأحداث التي كانت تجري بسرعة خاطفة قد سبقته ، فقد بعث يزيد ابن عبدالملك العباس بن الوليد بن عبد الملك في اربعة آلاف فارس جريدة خيل ، حتى وافوا الحيرة يبادر اليها يزيد بن المهلب ، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك وجنود الشام ، واخذ على الجزيرة وعلى شاطىء الفرات (١٦٧) ، ففات الوقت التي كان يستطيع ابن المهلب أن يسير الى الجزيرة ، لأنها أصبحت بسيطرة أهل الشام ، أو يسير الى فارس وخراسان ، لأن جيش الشام أصبح قريباً منه لايدعه يفلت أو يتملص من قبول المعركة .

---

(١٦٦) الطبري (٦/٥٨٨ — ٥٨٩) .

(١٦٧) الطبري (٦/٥٨٥) .

وهكذا فرضت قوّات الدولة مكان المعركة ، وزمانها ، فربحت بذلك الدولة نصف المعركة ، وكان المفروض ان يفرض زمان المعركة ومكانها يزيد على قوّات الدولة .

ولم يكن مكان المعركة مناسباً ، فقد كان مكشوفاً في سهل ممتد الى مسافات شاسعة ، يساعد على الهجوم ولكنه لا يساعد على الدفاع ، وقوات الدولة اذا خسرت المعركة فيه ، فانها لاتخسر كل شيء ، لأنها تستطيع أن تُعيد الكرة مرّة بعد أخرى ، حتى تحرز النصر .

أما الأمر بالنسبة الى يزيد ، فمختلف جداً ، لأنه اذا خسر معركة واحدة فقد خسر كل شيء كما حدث ، ذلك فعلاً .

كما أنّ مكان المعركة قريب من قاعدة الدولة الرئيسة في أرض الشام ، كما أنه قريب من القواعد المتقدمة : الكوفة وواسط والبصرة والجزيرة ، ولاعبرة بسيطرة يزيد على البصرة وواسط ، لأنها تبقى قواعد متقدمة للدولة ، مادامت الدولة قائمة ، وتدفع الأموال ثمناً للامورالادارية التي يحتاج اليها جيشها ، أما فارس وخُراسان فبعيدة عن قواعد الدولة الرئيسة والأمامية والمتقدمة ، مما يعرقل القضايا الادارية لقوات الدولة ، ويهدد خطوط مواصلاتها بالانقطاع في اول نكسة تصيب تلك القوّات .

كما أنّ ليزيد جذوراً عريقة وعميقة في خراسان ، وفيها أعداد ضخمة من قومه ومن الموالين له يَعتمد عليهم غاية الاعتماد في القتال ، فكان بامكان يزيد الاستفادة من اولئك الأنصار المخلصين له في الحرب ، وقد ادرك يزيد هذه الحقيقة بعد فوات الاوان ، فقال قُبَيْل أن ينشب القتال : « ترون أن في هذا العسكر الف سيف يُضرب به ؟ ! » ، فقيل له : أي والله ، وأربعة آلاف سيف » ، قال « انهم والله ما ضربوا الف سيف قط ، والله لقد أحصى ديواني مئة وعشرين الفاً ، والله لوددْتُ أنّ مكانهم السّاعة معي مَنْ بخراسان

من قومي! » (١٦٨) .

ولم يكن زمان المعركة مناسباً أيضاً ، فان المطاولة تفيد يزيد لاستكمال استحضاراته القتالية ، فكان ينبغي أن يكمل هذه الاستحضارات ثم ينشب القتال بعد اكمال الاعداد لاقبله على كلّ حال .

ومن أسباب هزيمة يزيد ، أنه لم يستطع أن يُعلن سبباً مسوغاً لثورته على الدولة ، فخوفه على نفسه من يزيد بن المهلب ليس سبباً يقنع الناس في حينه بأنه على حق فيما اقدم عليه .

لقد تظاهر يزيد بانه ثار على الدولة ليعمل بكتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم (١٦٩) ، باعتبار أنّ الدولة انحرفت عن منهج الدين الحنيف ، ولكن لااعتقد أنّ الحشود الذين التقوا حوله قد صدّقوا هذا الشعار الذي أعلنه ، كما لا أعتقد أن آل بيته المهالبة قد صدّقوا هذا الشعار أو التزموا به .

وقد كان الشعور الديني حينذاك قويّاً عارماً ، وكان الناس يقبلون على مثل هذا الشعار إقبالاً شديدا ، وكان في البصرة والكوفة من العلماء الأعلام الذين لا تنطلي عليهم الشعارات الزائفة ولا يسكتون عن الذين يحملونها زوراً وبهتاناً .

فقد خطب يزيد بعد خلع يزيد بن عبد الملك وإعلان ثورته ، فأخبر اهل البصرة بخطابه أنه يدعو الى كتاب الله وسنّة نبيّه ويحثهم على الجهاد ، وكان الحسن البصري يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك ، فما ينبغي عليك ذلك » (١٧٠) ، ومرّ الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد ، وهم يقولون : تدعونا الى سُنّة العُمَرَين ، فقال الحسن : « كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم

(١٦٨) الطبري (٦/٥٩٢) .
(١٦٩) الطبري (٦/٥٩٢) .
(١٧٠) ابن الأثير (٥/٧٥) .

يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ، ثم قال « اني قد خالفتهم فخالفوهم ! قال هؤلاء : نعم ! ثم قال : « إني أدعوهم إلى سُنَّة العُمَرَيْن ، وأنَّ من سُنَّة العُمَرَيْن أن يوضع في رجله قيد ثم يُردّ إلى محبسه » (١٧١) . ثم مضى الحسن يثبط الناس ، ويأمرهم بالقعود ، لان يزيد في شعاره الديني الذي رفعه ليس صادقاً .

وكان في المجتمع الاسلامي من علماء الحق أمثال الحسن البصري كثير ، يقولون كلمة الحق كما جاء بها الدين الحنيف ، ولم يكن في ذلك المجتمع من علماء السلطان الذين يؤيدون السلطان ويسوغون كلمته مهما تناقض تعاليم الدين الحنيف ، لذلك أخفق يزيد في رفع هذا الشعار ، لأنه لم يكن بينه وبين رجال الدولة فرق كبير ، ولان صوت علماء الحق اكتسح صوت علماء السلطان ، فالتف حول يزيد الراغبون في الدنيا ، ولم يلتف حوله الراغبون عن الدنيا .

ومن المعلوم أنّ الذي يقاتل عن عقيدة راسخة ، ليس كالذي يقاتل بدون عقيدة ، والجندي المجاهد غير الجندي المرتزق ، وكل ثورة بلا (قضيّة) تؤمن بها وتدافع عنها قد تنتصر ولكن انتصارها لايبقى طويلاً ، ومصيرها إلى الاخفاق الاكيد .

وقد كان غالبية جند يزيد مرتزقة ، تكاثروا عليه حين وجدوه جواداً كريماً . وتخلوا عن أمير البصرة حين وجدوه بخيلاً مقتّرا ، فلما زجت الدولة بقواها الضاربة وفتحت خزائنها بسخاء للذين يؤيدونها ، تسلل كثير من المرتزقة إلى معسكر الدولة من معسكر يزيد ، فالامر بالنسبة لهؤلاء مسألة مكاسب شخصية لا اكثر ولا اقلّ .

كما أنّ غالبية جيش مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وهو جيش الدولة ، كان من المرتزقة أيضاً ، فكان من اسباب اخفاق يزيد أن مرتزقته قاتلوا لمستقبل غير

(١٧١) الطبري (٥/٧٦) .

مضمون ، بينما انتصر مرتزقة الدولة لانهم قاتلوا لمستقبل مضمون ، فما مستقبل يزيد الغامض كمستقبل دولة قائمة راسخة الجذور .

وبالنسبة للمرتزق ، فانّه يشهد الحرب ولكنه لايقاتل الا مضطراً أبداً، أما اذا كان في غفلة من عيون المراقبين ، فهو لايقاتل ابدا ، بل يأوى الى موضع امين مريح ، حتى تنتهي المعركة غير مكترث اذا خسرها الذين يرتزقون منهم أو ربحوها ، وقد ينقلب عن جماعته الى اعدائها اذا كان ما يدفع العدو أكبر مما يدفعه الصديق .

فاذا شعر المرتزق أن حياته أصبحت مهددة بالموت ، وكان قادراً على الفرار فانه لا يتردد لحظة واحدة عن الفرار من خطر المعركة إلى امن السّلام .

وقد هرب مرتزقة يزيد فورا حين قيل لهم : أحرق الجسر ، فانهزموا لايلوون على شيء ، لانّ الجسر يفيدهم في التسلل إلى الصحراء أو إلى المدن الأخرى فقال يزيد : « قبّحهم الله ! بقّ دُخّن عليه فطار » ، وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه ، فقال : « اضربوا وجوه من ينهزم » ، ففعلوا ذلك بهم ، فاستقبلهم منهم مثل الجبال ، فقال : « دعوهم ! فوالله إني لارجو ألا يجمعني الله واياهم في مكان واحد ابدأ ! دعوهم يرحمهم الله غَنَمٌ عدا في نواحيها الذئب » (١٧٢) .

وصدق يزيد ، فالمرتزقة كالبقّ ، يطير بعيدا عن الدخان ، أما غير المرتزق فلا يخشى الدخان ، بل يقتحم النار ولا يحترق .

وسبب هرب المرتزق في اول صدمة ، هو أنه لا (قضية) له يؤمن بها ويدافع عنها ويضحي من أجلها ، كما أنه يتعرض للموت ، فالروح أغلى من المال الذي يقبضه ، وهو تاجر في الحرب يوازن بين الخسارة والربح ، فاذا ربحت كفة الخسارة على كفة الربح ، تملص من المعركة ناجياً بروحه ليدخرها لارتزاق جديد .

---

(١٧٢) الطبري (٦/٥٩٥) .

وهكذا لم يبق مع يزيد في معركة (العَقر) غير اصحابه ومواليه وناس من قومـــه ، ثبتوا وضحّوا دفاعــاً عن انفسهم ومصـــالحهــم الشخصية واحسابهم ، اما (القضية) التي يضحي الناس من اجلها ، فغائبة عن هذا الميدان.

وتَغَلُّبُ عنصرِ المرتزقة على جيش يزيد ، جعله لا يثق به كما كان يثق برجاله الذين قاتلوا تحت رايته في معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح .

وقد كان تَعداد جيشه مئة الف في معركة (العَقْر) ، ولكنه كان لايصدق أنّ الفاً منهم يقاتلون كما يقاتل الرجال (١٧٣) ، أي أنّه كان يثق بواحد بالمئة من تعداد جيشه ولا يثق بتسع وتسعين بالمئة من هذا الجيش !

ولا يمكن أن ينتصر قائد يقود مثل هذا الجيش !

ومن عيوب المرتزقة ، أنهم لا يتحلّون بالضبط المتين ؛ فهم لا يطيعون الاوامر كما ينبغي . ولا ينفذونها إذا كان تنفيذها يناقض مصالحهم الشخصية ، وبخاصة اذا كان تنفيذها يؤدي بهم الى الموت .

لقد كانت أوامر يزيد في المعركة لاتنفذ ، وكانت موضع نقاش بينه وبين المترددين من رجاله (١٧٤) ، وكان لاينفذ أوامره غير اصحابه ومواليه وأهل بيته ، أما الباقون فكانوا متفرجين . ولقد برز رجل من اهل الشام في بداية المعركة ودعا الى المبارزة . فلم يخرج اليه أحد من جيش يزيد ، فاضطر محمد ابن المهلب أن يبرز للرجل الشامي ويقتله (١٧٥) ، اذ ان المبارزة هي تحدى جيش لآخر . ولا ينبغي السكوت عن التحدي ولا قبوله .

تلك هي مجمل اسباب هزيمة يزيد : قبول معركته الفاصلة في وقت غير مناسب. وغياب (قضيّة) . يؤمن بها الناس ويلتفون حولها ويضحون من اجلها ،

(١٧٣) الطبري (٦/٥٩٢) .
(١٧٤) الطبري (٦/٥٩٣) .
(١٧٥) الطبري (٦/٥٩٥) .

وقيادة جيش من المرتزقة لايقاتل ولا يوثق به ، ولا يتحلى بالضبط المتين ولا يطيع الاوامر الصادرة اليه من القيادة ولا ينفذها .

بقي علينا أن نذكر أنّ يزيد كان يعتد برأيه كثيراً ولا يعتد بآراء الآخرين، ولا يقبل نصائح الناصحين ، فهو قلما يستشير احداً واذا استشار خالف المشيرين .

وأستطيع أن أبين بوضوح من دراسة شخصيته ، أنه كان يتميز بالعناد الشّديد ، فاذا قرر امراً مضى في تنفيذه ، غير ملتفت إلى آراء الآخرين .

وحين وجد اموره في معركة (العَقْر) سيّئة لا تبشّر بخير ، قرر أن يموت مقاتلاً ، فقد كان لايحدِّث نفسه بالفِرار (١٧٦) .

وطالما تحدث عن هرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكِنْدِيّ من معركته امام الحجّاج بن يوسف الثقفي ، فقال عنه بمرارة وأسى : « إنّ عبد الرحمن فضح الذّمار ، وفضح حَسَبه ، وهل كان يعدو أجلَه » (١٨٧)

وهو الذي اوصى ابنه خالداً ، وقد بعثه قائداً لسرية في واجب محفوف بالاخطار ، في معارك استعادة فتح (جُرْجان) ، فقال لابنه : « إنْ غُلِبْتَ على الحياة ، فلا تُغْلَبَنَّ على الموت ، وإيّاكَ أن اراك أن عندي مُنْهَزِماً (١٧٨)

وليس يزيد ممن ينتقدون أحداً ، ولا يتحاشون ماعابوا الناس به ، وليس ممن يوصي ابنه بأمرٍ ، ولا يطبّق وصيّته على نفسه ، وليس يزيد ممن يقولون مالا يفعلون .

ومضى يزيد إلى الموت حُضْراً على حصانه ، والسيف بيده لا يرتعش ولا يهون ، فسقط قتيلاً وبقي السيف بيده ، فخسر في معركته الأخيرة كل شيءٍ . . . . إلا الشَّرَف .

(١٧٦) الطبري (٥٩٦/٦) .
(١٧٧) الطبري (٥٩٢/٥) .
(١٧٨) الطبري (٥٤٣/٦) .

ابن المهلب في التاريخ

يذكر التاريخ ليزيد بن المهلب ، أنّه فتح مناطق واسعة في بلاد ما وراء النهر وخُراسان وطَبَرِستان .

وانه استعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت من هذه البلاد الاسلاميّة الثلاثة .

وأنّه أعاد اليها الأمن والاطمئنان والسلام بعد ان كانت ردحًا من الزمن تعج بالقلاقل والاضطرابات والفتن .

ويذكر له ، أنّه كان قائداً فذاً لا يتكرر الا نادراً ، واداريًا قديراً يسيطر على رعيته بقوة من غير عنف وسماحة من غير ضَعف .

ويذكر له أنّه كان يؤثر أن يكون (غازياً) في الفيافي والقفار والسهول والجبال ، على أن يبقى (جابياً) فى المدن والأمصار والقصور والدور .

ويذكر له ، أنّه كان يقود رجاله من (الامام) ، يقول لهم ، اتبعوني ، ولا يقود رجاله من الخلف ، يقول لهم : تقدموا ، ويبقى هو في موضع أمين

ويذكر له ، أنّه كان جوادا سبق الاولين والآخرين في جوده ، كأنّ السّفن كانت تمخر في عُباب جوده .

ويذكر له ، أنّه كان شجاعاً لا يخشى أحداً في القتال ، ويخشاه كل أحد ، وكان الموت أهون عليه من الفرار .

ويذكر له ، أنّه كان يقول ويفعل ، ولا يقول دون أن يفعل ، وكان عمله الغالب على قوله . فاذا تكلم التزم بكلامه التزاماً مطلقاً .

ويذكر له ، أنّه ضحى بنفسه ، ولم يُضح بشرفه ، فخسر كل شيء في معركته الأخيرة الا شرفه وشرف قومه .

ويذكر له ، أنّه من بين القلائل الذين استحقوا ثناء أعدى اعدائهم وثناء الذين ساقهم الى الموت في ميدان القتال .

ويذكر له ، أنّه كان فتى العرب في أيامه دون منازع ، وسيد أهل العراق بعامة واهل البصرة بخاصة .

ويذكر له ، أنّ قتله لم يكن خسارة للمهالبة وحدهم ، بل كان خسارة للدولة وخسارة للمسلمين كافة .

ويذكر له أنّه قضى حياته أميراً تارة وسجيناً تارة أخرى ، ولكن منزلته أميراً ومنزلته سجيناً في القمة بنظر الناس الذين يقصدونه في السجن كما يقصدونه في القصر .

ويذكر له ، أنّه من القلائل الذين يثبتون عملياً ، بانّ مراسيم الخلفاء تصنع الوزراء ولكنها لا تصنع الرجال .

يرحم الله القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، الفارس البطل ، الجواد الكريم ، يزيد بن المُهلَّب بن أبي صُفْرة الازدي ، جزاء ماقدّم للعرب والمسلمين حياً من أعمال جليلة ، وما قدّمه ميْتاً من مُثُلٍ عُلْيا .



الفهرس

عرض الكتب

مجلة المجمع العلمي العراقي



الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغـــــداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م